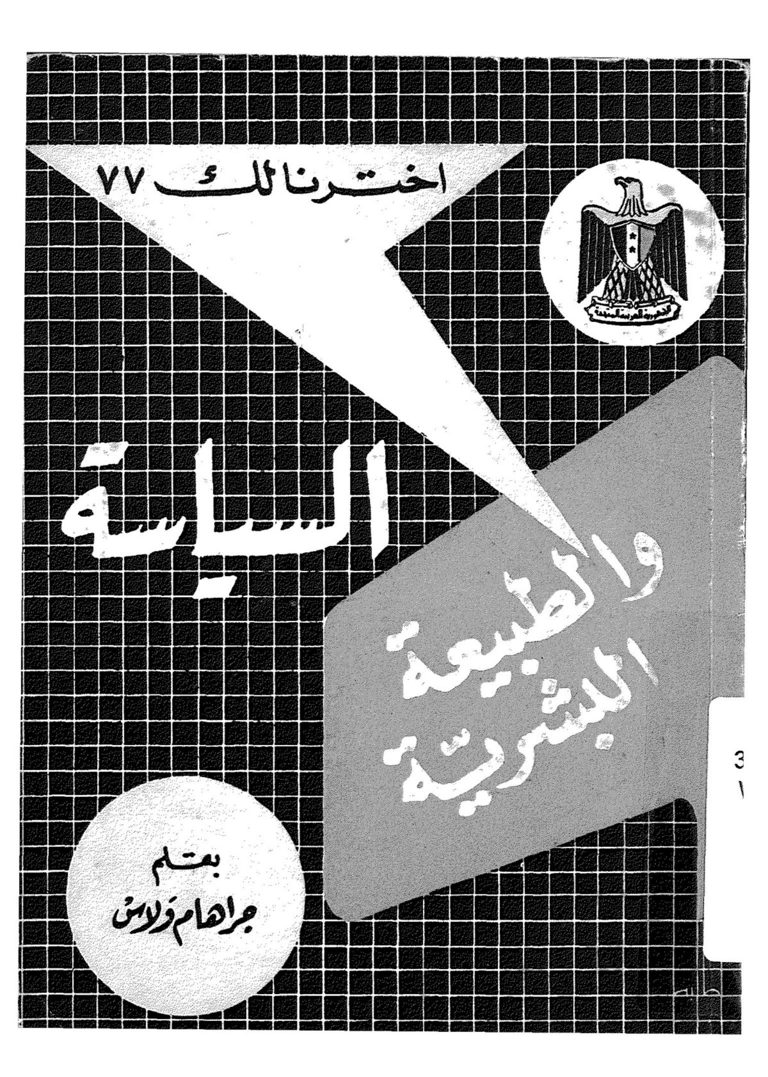

اخترنا لك ٧٧
السياسة
والطبيعة البشرية
بقلم
جراهام ولاس

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

اخترنا لك :
٧٧

السياسة والطبيعة البشرية

بقلم
جراهام ولاس

مطابع شركة الاعلانات الشرقية

مقدمـــة المؤلـــف

ما زالت دراسة علم السياسة فى مهدها حتى الآن (١٩٠٨) .

ويتراءى لنا من النظرة الأولى أن أدق نظام للحكم لايتسنى الا فى وجود النظام الديموقراطى النيابى . وقد كانت سـيادة دولة كبرى حديثة التكوين يقوم الحكم فيها على أساس النظام الانتخابى الشامل فى أوروبا ، على الأقل ، تجربة لم تنجح بعد نجاحا تاما . وكانت انجلترا حقا ، «بقفزتها التى قفزتهـــا فى الظلام» عام ١٨٦٧ حتى تلك اللحظة الدولة الكبرى الوحيدة من دول أوروبا التى تتمتع بحكومة ديموقراطية نيابية . وتوجد فى فرنسا اليوم جمهورية ديموقراطية قائمة على أساس نظـام التصويت العام . وتتمتع ايطاليا بنظام ملكى دستورى ثابت (١) كما أن نظام التصويت العام ما زال قائما فى النمســـا . وكان الامبراطور الالمانى ــ فى معرض حديثه عن نفســه ، بعـــد الانتخابات التى أجريت عام ١٩٠٧ ــ يعتبر نفسه قائدا ناجحـا استطاع أن يقود الحملات الانتخابية بنجاح ، ولا يعتبر نفســه وارث الحق المقدس . وكم تتمنى غالبيـــة شعب الاتحـــاد السوفييتى اقامة برلمان يتمتع بالسيادة ، وأن يشـــق مجلس

(١) لقد تغير نظام الحكم فيها اليوم الى نظام جمهورى .

الدوما طريقه الى هذه الغاية ، دون تعثر وفى ظروف مناسبة .
ويطالب أولئك الكاثوليك الذين يغالون فى الايمان بسيادة البابا بمنح البابا سلطات دنيوية واسعة ، لا كأساس لاقامة نظام حكم مثالى للعالم ، ولكن كوسيلة لضمان السيطرة على بضعة اميال من الأراضى الايطالية . ويتمتع القائمون على شئون الكنيسة بحرية العمل ، كما يعتبر كل أفرادها ، فى الدول ذات النظام الدستورى ، مواطنين ، لهم حق التصويت العام ولكن الاقتراحات التى نادت باقامة ديموقراطية غير نيابية والتى أيدتها الحركات الشيوعية والفوضوية التى سادت القرن التاسع عشر ، لم تلق أى قبول وقد آمن كل الذين يأملون فى احداث تغيير فى المجتمع الآن حتى يمكن أن تنتشر آثار الصناعة العلمية الحديثة، بضرورة ممارسة الكادحين من الطبقات العاملة لحقهم فى الانتخاب

ورغم ذلك يبدو لى أنه قد خاب ظن السياسيين وطلاب علم السياسة فى الدول التى قبلت اقامة النظام الديموقراطى النيابى ، فى تحقيق ذلك نتيجة لتجربتهم السابقة فى هذا المجال . وقد مرت الولايات المتحدة الأمريكية بتجربة من هذا القبيل لفترة طويلة وظل دستورها قائما زهاء قرن وربع قرن كما ثبت بطريقة عملية أنه لا يمكن مضاهاة مبادئه ، رغم وجود نزعات معارضة وجدال عنيف نتيجة للتأويلات التى تهاجم تفاصيله . ويرى الزائر الانجليزى انه ليس هناك أى مواطن أمريكى ينظر بارتياح

الى الجهاز الانتخابى الذى لا تزال سلطته فى ازدياد سواء فى سياسة الحكومة الاتحادية او سياسة كل ولاية من الولايات .

ولم تكن تجاربنا فى المجال الديموقراطى النيابى فى انجلترا قد دامت فترة أقصر بكثير من مثيلتها فى أمريكا فحسب ، بل ان تاريخنا السياسى يؤدى بنا الى التأخر ويمنعنا من تقبل مبدأ الديموقراطية تقبلا كاملا ، وكذا العمل على وضع الدساتير الديموقراطية . ورغم ذلك يجد الفرد فى انجلترا فى الديموقراطيات السليمة - مهما اختلفت درجاتها وظروفها ، ومهما اشتركت فى التفاصيل الخاصة بالنظام الانتخابى - شيئا من خيبة الأمل التى كانت ظاهرة فى أمريكا . وقد اتيحت لى الفرصة فى أن أخوض غمار معارك انتخابية برلمانية عديدة . فقد رشحت خمس مرات لعضوية مجالس بلدية لندن ، ورأيت فى معركة الانتخاب الأخيرة زميلين ممن يجمعون الأصوات للانتخاب يستعملان فى حديثهما هذا التعبير : « انه عمل غريب » وسمعت مرارا أصحاب السياسة الذين يعتمد نفوذهم على رؤية الحقائق الانتخابية وحدها يستعملون هذه الكلمات عينها فى انجلترا وليس لدى معلومات عن نظام الانتخاب فى كل من المانيا وايطاليا ولكنى أستطيع أن أستنتج بعض الملاحظات ذات الطابع الحقيقى الخاص بنظام الانتخاب الديموقراطى .

ويشعر الفرد فى كل من انجلترا وأمريكا بأن القوى التقدمية فى المجتمع ، لا القوى الهدامة ، هى التى تبعث أكثر المشـاكل تعقيدا وخطورة . ويظهر «الجهاز» الانتخابى فى أمريكا فى أسوأ طابع بالاخص فى تلك المدن الكبرى الحديثة التى تجد هدفهـا فى كثرة عدد سكانها ووفرة ثروتها ، وهو نفس الهدف الـذى تسعى اليه غيرها من المدن الامريكية . ويبدو لذوى الفطنـة وبعد النظر فى انجلترا أن الرشوة والفوضى الموروثة فى المـدن الكاتدرائية تعتبر من الشرور التافهة التى يمكن علاجها نسبيـا وتنبعث دواعى الخوف والوجل نتيجة لظهور أحدث المخترعات فى مجال الثروة والمشروعات الصناعية ونتيجة لظهور الصحف الحديثة ، وازدياد قدرة الافراد على الانتاج ومهارتهم فى توجيه الكميات الهائلة من رؤوس الأموال فى مجال الصناعة ، ونتيجة أيضا لتنظيم الآراء السياسية التى يؤمن بها العمـــال الذين اجتازوا جميع مراحل التعليم الابتدائى والذين يعيشون فى رقعة من الأرض تقدر بمئات الملايين من الأميال المربعة ذات الشوارع الصحيحة الجديدة التى لا يكاد المرء يميز بينها . وتجرى كـل بضعة اعوام بعض التجديدات فى النظام السياسى ، ويتبناها كل من الحزبين فى حالة نجاحها . وليست الخطط المعمول بهـا فى السياسة ــ كما هو الحال فى لعبة كرة القـــدم ــ هى نفس الخطط التى قرر وضعها الأشخاص الذين وضعوا قواعد اللعبة ،

ولكنها الخطط التى يرى اللاعبون أنها ستمكنهم من الفوز والتى يرى الناس أنها كفيلة بتحقيق الفوز لحزبهم ، دون أن يراعوا فيها أن تكون كفيلة بتحقيق أفضل حكومة للدولة .

وهناك ما هو أهم من ذلك وهو الخوف من عدم تحمل النظام الانتخابى الحالى والتوتر الذى قد يثيره نشوب صراع اجتماعى ـ ذلك الخوف الذى يظهر كلما انبعثت مشكلة جديدة ويدل على ذلك تلك المحاورات والمجادلات الكثيرة التى تثار عند مناقشة مشكلة التعريفة الجمركية فى انجلترا أو مشكلة تركيز رأس المال فى أمريكا أو مشكلة الديموقراطية الاشتراكية فى المانيا . ويقال انه من الممكن أن تسير الانتخابات سيرا حسنا طالما أن هذه المسائل ليست محل نقاش مما يدفع المهيمنين على الثروة والقوة الصناعية الى الاستفادة من كل الفرص التى تعرض لهم ، ولكن لو رأى الأغنياء فى أية دولة حديثة أن من صالحهم أن يتبرعوا بثلث دخلهم لأحد الأحزاب السياسية لكى يحافظوا على التعريفة الجمركية المرتفعة او لاصدار تشريع يؤكد اتحاد أصحاب الاعمال أو للمعارضة فى فرض ضريبة جديدة فلا يمكن منعهم من انفاق ما يريدون انفاقه باصدار قانون بالأعمال غير المشروعة . واذا فعلوا ذلك فانه يجب أن نهيىء الفرصة للحصول على أشخاص يتمتعون بالذكاء . وقد تقدم فن استخدام ملكة الذكاء فى توجيه العاطفة والرأى حتى

أصبحت الحالة العامة للمسائل الاقتصادية فى طريقهـــا الى التغيير فى المستقبل ، ولن يجد اى حزب الفرصة للنجاح المستمر اذا لم يزد من رأس ماله زيادة كبيرة ، أو يكتشف أى مصدر جديد آخر يقوى من نفوذه السياسى .

وقد كان النداء الذى وجه باسم الانتخاب النزيـــه الى المحافظين والمصلحين والاجتماعيين لترك حركاتهم المختلفة وتحديد سياستهم حتى تصبح أقل اثارة فى موضوعها ، عديم الجدوى ، ولم يكن له أى صدى فى النفوس .

كما قوبل الاقتراح الخاص بأن يشمل التحرر المرأة ايضا ، بنفس التردد والمراوغة اللذين يمتاز بهما السياسيون الذيـن لا يثقون فى قدراتهم الثقافية . ووجد احد المرشحين صعوبة كبيرة فى تبرير استثناء المرأة من التحرر عندما أحرج بكثرة الاسئلة التى وجهت اليه أثناء تحدثه عن مبادىء الديموقراطية . وطبقا لذلك كرست الغالبية العظمى من المرشحين الناجحين فى كل من الحزبين الرئيسيين فى الانتخاب العام الذى أجرى فى عام ١٩٠٦ مجهوداتها لتدعيم حق المرأة فى الانتخاب العام . ولكن يبـدو أن الكثير ، وربما الغالبية العظمى من هؤلاء الذين أخذوا على عاتقهم القيام بذلك يحاولون تجنب ضرورة تحقيق ذلك . وليس هناك ما يدعو الى الافتراض بانهم رجال ذوو أخلاق سيئة . فقد ثبتت حقيقة خوفهم من التأثير الذى ينتظر حدوثه نتيجـة

للقرار النهائى الذى قد يصدر فى هذا الشأن . فهم يعتقدون أن هناك اختلافات معينة بين الرجال والنساء ، على الرغم من أنهم لا يعرفون ما هى هذه الاختلافات او ما هى علاقتها بمسألة التحرر . ولكنهم ، على أى حال ، أقل تمسكا بشكوكهم من تمسكهم بالدفاع عن هذا الحق . وسوف يظهر للمسألة فى القريب العاجل نتيجة للدوافع الضرورية لذلك . وازداد تعقيد هذا الشعور المبهم بعدم الاستقرار فى الأمور التى نعالجها فى مناقشاتنا السياسية الواضحة باعتبار أنها قد استقرت ـ بظهور مشكلة التفرقة العنصرية . وقد اجتهد الرجال الذين كانوا لا يفكرون الا فى الأجناس الأوربية فى ادارة دفة الحرب من أجل الديموقراطية فى أوروبا . وكذا فى أمريكا فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . ولكن القوى العظمى كانت قد انشغلت ، فى الوقت الذى انتشرت فيه الديموقراطية بعد عام ١٨٧٠ ، فى الحصول على توابع لها فى المناطق الاستوائية . وكان لتحسين وسائل المواصلات الفضل الأكبر فى ربط الأجناس فى العالم بعضها ببعض . وقد وجد الرجل العادى أن حق التصويت المطلق (باستثناء بعض الحالات المحدودة) تتمتع به الدول ذات الأصل الأوروبى . ولكن لا يوجد فى أصل أو تاريخ مبدأ التمثيل النيابى ما يؤيد ذلك أو يبين ما ينوب عن التصويت كأساس للحكم . ولا يمكن اتخاذ قرار وجيه ونهائى فيما

تقوم به الدول الديموقراطية فى منحها او فى عدم منحها حـق التصويت للاتباع غير الأوربيين . فأسقطت الولايات المتحـدة مثلا حق الزنوج فى الانتخاب دون أن تثار أية ضجة أو معارضة. وتكمن المشكلة فى هذه الحالة البسيطة . فنظرا لوجود اختلاف كبير فى التفكير العقلى بين زنوج غرب أفريقية والرجال البيض من شمال غرب أوروبا ، لم تخط أية خطوة جديدة لايجاد حل جديد لها . وقد احتار الأمريكيون فى معالجة هذه المســائل العنصرية التى خلقتها هجرة الصينيين واليابانيين والســلاف ، وكذا احتارت الحكومة ذات السكان الخليط من البيض والسود فى الفيلبين . ولم تتأكد انجلترا ومستعمراتها بعد من وجــود المشاكل السياسية التى أثارتها هجرة الأجناس التى لا تنتمى الى الجنس الأبيض ، والاعتراف باستقلال المناطق التابعة لهـــا فى الجهات الاستوائية . وحتى عند مناقشتنا للمستقبل السياسى للدول الآســيوية المستقلة ، فاننا لن نعلــم أكان من الضرورى أن ينصب المبدأ الذى يقول «لا دفع ضرائب دون تمثيل نيابى» على تلك الدول أم لا ؟ ويعتمـــد مركزنا كقوة آسيوية عــــلى مساعدة الصين وايران فى تطورهما رغم أن بهما بعض الأجناس التى تفوقنا فى بعض النواحى الفكرية . وما من شك فى أنهـم عندما يقتبسون نظمنا فى فنون الهندسة والميكانيكا والتسليح ، سيعملون على تقدمهم رغم أننا نخشى منافستهم لنا فى الميــدان

التجارى والعسكرى • ولا يوجد لدى أى فرد من أتبـــاع الفيلسوف بنتام الرغبة فى تصدير أحدث ما وصـــلنا اليه فى السياسة الى آسيا للاستفادة العامة منها • واننا نسمع أن ايران قد أقامت برلمانا ونحن نراقب تطور هذه التجربة باهتمام • وعند حكمنا على نتيجتها المحتملة نشك في نجاحها تماما • وقد ســاعدنا اليابانيين فى الاحتفاظ باستقلال بلادهـــم كدولة دستورية • ويشفق معظم الانجليز على رغبة الصينيين فى التقدم فى نطـــاق الاستقلال القومى والاصلاح الداخلى • ولن يكون هناك على العموم الا القليل منا ممن يرغبون فى ابداء أية نصيحة محددة لأى رجل صينى ، اذا سأل عما اذا كان يســـتطيع أن يساهم بنفسه فى دعوة الغرض منها المناداة باقامة برلمان نيابى على غرار برلمانات أوروبا •

وقد يؤدى هذا التزعزع فى مبادئنا السياسية ، فى حـدود امبراطوريتنا الى عواقب وخيمة بالفعل • وتنظم العلاقة السياسية فى افريقية مثلا بين الأوروبيين من بلادنا الغالبية العظمى غـير الأوروبية من الكافير والنيجرو والهندوس والأقباط والعـرب على أسس مختلفة كل الاختلاف عن تلك فى ناتال وباسوتولاند ومصر وشرق افريقيا • ولا يرجع الاختلاف الدستورى ، فى كل حالة ، كثيرا الى طبيعة المشكلة المحلية بقدر رجوعها الى المصادفة التاريخية • وقد يحدث انفجار فى أى مكان وفى أى وقت نتيجة

تعدى الأوربيين على الحق الذى كفلته الحكومة لغير الاوروبيين أنفسهم . وثار البيض والسود عند علمهم بأن هنــاك قانونا فى نيروبى وآخر فى دوربان .

وهذا الوضع دون شك خطير بالنسبة لمسألة الهند . فقد أجل انجليزى من الأحرار اتخاذ أى قرار فى السياسة الهندية لأنه يعتقد أننا نعلم السكان كيفية حكم أنفسهم بانفسهم وأنهــم سينالون فى الوقت المناسب حقهم فى انتخاب برلمان هندى . وأنه يعلم الآن أن هناك أجناسا كثيرة فى الهند ، وأنه لا يمكن ازالة بعض الاختلافات الهامة بين هذه الاجناس انفســـها وبين أى جنس منها وجنسنا نحن عن طريق التعليم . وأخبـــره أناس يحترم آراءهم بان هذه الحقيقة تثبت أن النظام النيابى الذى يلائم انجلترا لن يلائم الهند أبدا . ولذلك فانه سيظل يشــعر بالقلق لأنه المسئول عن الحكومـــة الأوتوقراطية الدائمة التى تحكم شعبا تعداده ٣٠٠ مليون نسمة ويتذكر من وقت لآخــر أن هناك من بين هؤلاء الناس ، أو من جيرانهم ، من له دراية وأفكار سياسية محددة أكثر مما عنده ، وأنه على استعداد لأن يحارب بكل ما أوتى من قوة فى سبيل الحصول على قوة طالمــا جاهد لنيلها .

وحتى ذلك الوقت فان وجود المشكلة الهنــدية يقلل – دون أن يدرك ذلك تماما – من تعلقه بالديمقراطية فى المسائل القريبــة

منه . فالجرائد والمجلات والسفن التجارية تعمل باستمرار على جعل الهند أكثر حقيقة له . واعتقاد الفرد الحر بأنه يجب منح المهاجرين وسكان لندن الذين يسكنون فى بيوت حقيرة حق الانتخاب قد تقرر بطريقة أقل عما لو كانت ستصبح اذا لم يوافق على القرار الذى يحرم أهالى راجبوت والبنغال وبارسيس منه. ولا يتوقع السياسيون ، العمليون دون شك أن يتوقفوا فى منتصف الحملة لا لسبب الا لأنهم يشعرون بالقلق لأن قواعد اللعبة تحتاج الى اعادة التنظيم وابعاد ما يمكن ابعاده . ولكن الربح والخسارة فى الانتخاب لا يستنفد الواجب الكلى للدولة ، وربما لم يكن هناك أبدا متسع من الوقت لبحث المبادىء السياسية غير المرغوب فيها . ومن ثم كان الباعث الأول على التأمل السياسي هو تلك الحروب والثورات : فمن حرب اليونانيين ضد الفرس ، وصراعهم العنيف فيما بين أنفسهم من أجل الاستعلاء ، الى الحروب الدينية التى ظهرت فى القرن السادس عشر والسابع عشر ، الى الثورة الامريكية والفرنسية اللتين قامتا فى القرن الثامن عشر وقد كانت الأحداث الاجتماعية التى ظهرت فى أوروبا فى عصرنا ، بالرغم من ذلك ، من العوامل التى ساعدت على فشل الحركات العظمى لا على نجاحها . فذهبت صفات الاخلاص والشجاعة التى سادت روسيا هباء

منثوراً نتيجة للانقسام والاختلاف العميق فى النواحى الفكرية بين المصلحين .

وتضفى الأسلحة ووسائل المواصلات الحديثة مزايا عسكرية على أية حكومة مهما كانت درجة استبدادها وفسادها . وتعطلت المبادىء الديموقراطية الاشتراكية الألمانية باستخدام قوة الدين والوطنية ونتيجة لجمود عقيدتهم ، وضعفت الموجات الناجحة للديموقراطية الأمريكية عندما واجهت النفوذ السياسى لرأس المال . ولكن الفشل والوحشية يمكن أن يواجها أية ثورة ناجحة وقد حدث ذلك فى كثير من الحالات . وسجلت التجربة السياسية وأختبرت بدقة لم تعرف بعد . وأصبح تاريخ العمل السياسى فى الماضى خاضعا لعمل منظم بدلا من ان يترك لعلماء لا رابط بينهم . فالتطورات السياسية الجديدة للعصر الحاضر كالاتحاد الاشتراكى والاستفتاء فى سويسرا والنظام المالى العام لألمانيا والنظام العسكرى فى انجلترا وأمريكا وغيرها ، تسجل باستمرار وقد نوقشت وكانت محل مقارنة فى مقالات ومجلات فنية تنتشر فى جميع جامعات العالم .

وتعتبر محاولة دراسة علم السياسة على ضوء علاقتها بطبيعة الانسان الشكل الوحيد للدراسة الذى يفتقر اليه كل مفكر سياسى منذ مائة او مائتين عام . فلكل مفكر من المفكرين

القدامى من أفلاطون الى بنتام ومل وجهة نظره فى طبيعة الانسان وقد بنوا وجهات نظرهم هذه كأساس لتأملاتهم فى الحكومة . ولكن لم تبدأ الى الآن أية معالجة حديثة فى علم السياسة ، سواء أكانت متعلقة بالدساتير أو بالمسائل المالية أو بذكر أى شيء له علاقة بالمقدمات فى مبادىء الاخلاق والتشريع لبنتام — والتى تقول : لقد وضعت الطبيعة الانسان تحت حكم سيدين مستقلين: وهما الألم واللذة ، أو «بالاقتراح الأول العام» للاقتصاد السياسى لناسيو سينيور الذى يقول « يأمل كل رجل فى أن يزيد من ثرونه بتضحيات بسيطة بقدر الامكان » . ولا يستطيع الفرد فى معظم الحالات أن يكتشف اذا كان الكاتب يشعر بأنه يعلم شيئا عن طبيعة الانسان أم لا .

ومن السهل أن نفهم كيف حدث ذلك . لقد بدأ علم السياسة فى استعادة مكانته بعض الشيء عقب الاعتراف بفشل أهدافه وأعماله التى كان موثوقا بها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ولقد فشل مذهب بنتام فى المنفعة بعد الغاء كل من الحق الطبيعى والوراثة العمياء واستخدامه كأساس للاصلاحات العديدة التشريعية والدستورية فى انحاء أوروبا ، لرفض الرجل البسيط الذى لا يمكن الرد عليه ، الاعتقاد بأن السرور والألم هما المنبعان الوحيدان للدافع الانسانى . وكان الاقتصاد السياسى القديم للجامعات والصحف وكذا

الاقتصاد السياسى لماك كولوش وسينيور وكبير الأساقفة واتلى ذا حظ سىء فى محاولته استنتاج نظام الدولة الصناعى مـــن «بعض المبادىء البسيطة» للطبيعة البشرية . وقد أصبح واضحا استحالة أى تغير فى توزيع الاشياء الطيبة فى الحياة علميـــا عن طريق القواعد السطحية التى أراد الاغنياء أن يقنعوا بها الطبقـــة العاملة فى النصف الأول من حكم الملكة فكتوريا . وكان ماركس وراسكين وكارليل أســـياد التهكم ولم تنس بعد الاعتبـــار الذى أجبروا به الصحف تدريجيـــا على ترك « قوانين الاقتصـــاد السياسى» التى وقفت من عام ١٨١٥ الى عـــام ١٨٧٠ كرجال البوليس الأقوياء الذين يقفون حراسا على الأجور والأرباح .

وعندما كان الصراع ضد «الاقتصاد السياسى» على أشده شرحت نظرية داروين فى « أصل الانواع » نشـــوء الكون الذى تظهر فيه «بعض المبادىء البسيطة» غامضة نوعا ما . وقد حاول هيربرت سبنسر محاولة تعميم سريعة من تاريخ التطور البيولوجى الى فلسفة اشتراكية كاملة خاصة به . ودعا الى «حرب ذات فائدة خاصة » التى أعتقـــد بأنها تمشى والمنافســـة التجارية التى انتشرت بين أصحاب المحلات الانجليزية فى المقاطعات حوالى عام ١٨٨٤ . وقد أخفق سبنسر فى اجتذاب تأييد الصحف الـــى جانبه . ورغم ان نظامه قد انتشر انتشارا واسعا الا انه ساعد

على فقدان الثقـــة فى أية محاولة لربط علم السياسة بدراســـة الطبيعة البشرية .

ولذلك نجد جميع طلاب السياسة تقريبا يحللون الدساتير ويتجنبون تحليل طبيعة الانســان . ولقد تقدمت دراسة طبيعـة الانسان التى قام بها علماء النفس ، منذ اكتشاف تطور البشرية، تقدما عظيما ، ما فى ذلك من شك ، ولكنها تقدمت دون ان تؤثر أو تتأثر بدراسة علم السياسة . وتهتم كتب علم النفس الحديث بتصوير الحقائق التى لا حصر لها ـ حقائق عن البيت والمدرسة والمستشفى ومعمل التجارب النفسية ، ولكنها لا تكاد تذكـر شيئا عن السياسة . وبدأ علماء علم الاجتماع الحديث بالفعل فى دراسة الطبيعة البشرية لا من ناحية علاقاتها بالأسرة والديـن والصناعة فحسب ، بل أيضا من ناحية بعض الدساتير السياسية المعينة . وعلى العموم فان علم الاجتماع ليس له سوى تأثـير ضئيل على علم السياسة .

وأعتقد أن محاولة فصل دراسة علم السياسة عن دراســة طبيعة الانسان ما هى الا نزعة فكرية مؤقتة ، وأنه عندما تترك تأثيرها فى كل من العلم والسلوك السياسى فانه من المحتمل أن ينشأ عنها بعض الضرر . وهكذا توجد دلائل سابقة تشير الى أنها تتجه الى نهايتها .

ولقد ثبت فى بعض الأحيان أنه فى حالة اتقان أى علم اتقانا

كاملا فانه يجب أن يكون هناك تقسيم فى العمــــل فى العلوم الأخلاقية كما هو السائد فى العلوم الطبيعية . ولكن مثل هذا التقسيم لا يمكن أن يستمر فى الحقيقة .

فعلى طالب السياسة أن يتخذ رأيا فى الطبيعة البشرية سواء أكان شعوريا أم لا شــــعوريا . وكلما قل شعوره عنـــد تكوين رأيه كلما زاد الاحتمال فى أن يخضع له . واذا كانت لديه خبرة شخصية واسعة فى المجال السياسى ، فقد تساعـده آراؤه التى كونها لا شعوريا ، أما اذا لم يكن لديه مثل هذه الخبـــرة ، فسوف يؤدى ذلك الى حرمانه من التوجيه الصحيح .فمثــلا «الكتاب الصغير» لروزفلت الذى يحوى مقالات عن المثل العليا فى أمريكا ، كتاب مفيد ، لأنه عندما فكر فى الانسان فى المجال السياسى فانه فكر فى السياسيين الذين عرفهم . ويخرج المــرء عند قراءته بالاعتقاد بأن كثيرا من الكتب المنظمة فى السياســة والتى ألفها أساتذة فى جامعة أمريكا لا فائدة منها ، ذلــك لأن الكتاب تعرضوا لدراسة طبيعة أشخاص مجردة ، وكونوا آراءهم التى لا يلمسونها أو يعرفونهـــا . والتى لم يتفهموها ســـواء عن طريق التجربة أو عن طريق الدراسة .

ولا نجد فى بعض العلوم الأخرى التى تدرس الأعمـــال البشرية هذا التقسيم بين دراسة الشىء موضوع الفعل وبـين دراسة الشخص الذى فعل الفعل . وقد أوضح بيكاريا وبنتام

فى علم الاجرام منذ زمن طويل كيف أنه من الخطر أن يفصل الفقه بين دراسة الجرائم وبين دراسة نفسية المجرم . وان الآراء التى كوناها عن طبيعة البشرية حل محلها علم النفس الذى يتطور باستمرار . ولكن المفكرين المستحدثين من أمثال لومبروزو عملوا على استخدام علم النفس عند دراستهم للجرائم .

وقد أسس لوك وروسو وهيربرت وكثيرون من المؤيدين لبنتام نظرياتهم فى فن التعليم على آرائهم فى الطبيعة البشرية . وهذه الآراء هى بنفسها التى تكمن وراء نظرياتهم السياسية . وتأثرت بنفس الطريقة بواسطة العلم الحديث . ويبدو لفترة قصيرة كما لو كان المحاضرون فى معاهد التدريب الانجليزية سيعملون على الفصل بين دراسة الدساتير البشرية والطبيعة البشرية كما فعلوا فى علم السياسة . وتميزت محاضرات المنهج المدرسى فى هذه الفترة عن غيرها فى نظرية التعليم . فالأولى مجرد وصف ومقارنة بين التنظيم والتعليم فى المدارس الراقية ، أما الثانية فتتلخص فى العرض مع التعليق ، والنقد فى بعض المناسبات لبعض الكتاب القدماء من أمثال كومينيوس أو لوك أو روسو ، مثل ما قيل عن أرسطو وهوبز ولوك وروسو . وبينما استمرت محاضرات أوكسفورد ، كما أعتقد ، دون أى تغيير نجد أن محاضرات كلية المعلمين فى نظرية التعليم بدأت فى اظهار بشائر تغيير كبير كتلك التى ظهرت فى تدريب طلاب الطب عندما

بدأت محاضرات علم التشريح فى اعطاء أصدق الحقائق عـــن تكوين الانسان على مسئوليتها بدلا من عرض النظريات القديمة .

ويرجع السبب فى هذا الاختلاف الى أنه بينما نجد المحاضرين فى أكسفورد عند التحدث عن نظرية السياسة غالبا ما يكونون من غير السياسيين ، نجد أن المحاضرين فى كلية المعلمين عنـــد التحدث عن نظرية التعليم من المدرسين الذين يهتمون بمســألة مدى امكان الاستفادة بمعلومات جديدة من فنهم وعلى ذلـــك يجد المرء أن هناك تقدما فى علم التدريس الذى يجمع بـــين دراسة طرق التنظيم المدرسى ووسائله مع محاولة مخلصـــة للاستفادة من تجارب خاصة ، من دراسة النفس ومـــن بعض العلوم الأخرى ، ورغبة صادقة فى معرفة طبيعة الطفل ، وذلـــك تحت توجيه أساتذة مثل وليام جيمس وليلود مورجان وستانلى هـــال .

وقد أثر فن التعليم الحديث المبنى على علم النفس الحديث فى المدارس التى يتمرن مدرسوها على مهنهم التى يضيفون اليها حقائق جـــديدة دائما . فقللت بذلك الكثير من الوقت الذى كان يضيع دون جدوى ، كما أتاحت الفرصة للآلاف من المدرسين لكى ينظروا نظرة جـــديدة لعملهم ، كما زادت فرص التعليم والسعادة لعشرات الألوف من الأطفال . وقد جاءت محاولتى هذه لكى تثبت امكان حدوث أى تغيير فى ظروف علم السياسة .

ويوجد فى الجامعات الكبرى ، تزايد مستمر فى أســاتذة وطلاب السياسة الذين يمضون كل يومهم فى أعمالهم • ولا يســعنى الا أن أعتقد أنهم بمرور السنين سيلبون النداء الى المساهمة فى دراسة البشرية التى طالما كانت الحليف القديم للعلوم الاخلاقية، وهناك فى كل مدينة كبيرة جماعات من الرجال والنســـاء الذين يجتمعون فى المساء تدفعهم الرغبة فى ايجاد شىء أكثر نفعا من عقم الجدل السياسى القائم، وهم لديهم قادتهم ومعلموهم، ويستطيع الفرد من بين هؤلاء أن يلاحظ فى صبر وأناة ايجاد مقارنة بسيطـــة للدساتير القائمة ومناقشة مدى ملاءمة الاشتراكية أو الفردية ، الديمقراطية او الارستقراطية للاشــــخاص الذين تعتبر طبيعتهم شيئا مقررا •

وعندما يقرأ كتابى هذا مفكرون رسميون أو غير رسميين فانى أستطيع أن أبين لهم أن دراسة الطبيعة البشرية فى النطـــاق السياسى وفى حالة ما اذا قام مئات من المثقفين بتوحيد قواهـــم وتنظيمها ، فانها لن تعمل على توسيع معلوماتنا فى الدساتـــير السياسية وتعميقها فحسب ، بل انها ستفتح آفاقا واســـعة لم تطرق بعد فى المجال السياسى •

الكيـــان السياسى

تنبع دوافع الانسان وأفكاره وأعماله من العلاقة الناشـــئة بين طبيعته الانسانية والبيئة التى ولد فيها • وسنعرض فى هذا الفصل لهذه العلاقة من زاوية البيئة السياسية المحيطة بالانسان • ويوجـــد اختلاف هام بين الاتجاهين • وهو انه بينما ينظر السياسيون الى طبيعة الانسان كشىء ثابت لا يتغير فان البيئة التى وجد فيها تتغير بسرعة وبلا حدود • والتغيرات لا تحدث فى طبيعتنا وانما فى بيئتنا فقـــط ، أى التقاليد والتجارب التى اكتسبناها بعد مولدنا وكذا الاشـــياء المادية المحيطة بنا ، الامر الذى يرجع اليه تطورنا فى المجال السياسى ، من نظام القبيلة فى العصر الحجرى الى نظام الدولة الحديثة •

ينظر العالم الطبيعى الى الطبيعة البشرية نفسهـــا على أساس انها شىء متغير أما الفترة التى تشكل تاريخ السياسة والتى تقدر ببضعة آلاف من الاعوام فهى بالنسبة له غير ذات أهمية على الاطلاق • وربما حدثت تغيرات هامة فى الانواع الطبيعية فى تاريخ العـــالم فى فترات قصيرة نسبيا • ولكن هذه التغيرات على أى حال قد نجمت عن ممارسة نشاط طبيعى فجائى ، أو عن طريق اختيار أشـــد وضوحا وأكثر تميزا عما نعتقد أنه قد حدث لانواعنـــا فى الماضى القريب • ولا تبين صور الانسان الحاضرة لهذه الاجناس التى

نقشت رسومها على جدران مقابر قدماء المصريين أى تغيير ظاهر فى الشكل الجسمانى ، كما لا يوجد أى سبب يدعو الى الاعتقاد بـأن نشاطهم الذهنى وميولهم الفكرية التى ولدوا بها قد أصابها تغير كبير .

لقد تغيرت ، حقا ، النسب العديدة المتفاوتة بين الاجناس المختلفة فى هذه الفترة كظهور جنس من الاجناس بمظهر الضعف فى الحرب أو عدم قدرته على مقاومة المرض وتميزه بالمناعة عن غيره . كما أن بعض الاجناس قد اتحدت عقب هزيمتها عن طريق المصاهرة . ولو افترضنا الان حدوث تبادل بين طفل ولد حديثا وطفل آخر ولد منذ مائة ألف عام من نفس الاصل والنشأة فانه من المحتمل أن يعتقد المرء أن كلا من أم الطفل القديم الولادة وأم الطفل الحديث الولادة لن يلاحظا أى تغيير ملموس . وربما قاسى طفل العصر الحجرى الامرين من جراء اصابته بمرض الحصبة أكثر من أطفالنا ، أو ربما كانت بعض نزعاته الفطرية فى المشاجرة والصيد أكثر حـدة من نزعات أطفالنا فى هاتين الناحيتين ، أو أن يكون أكثر ادراكا للاشياء عندما ينمو عن زملائه الذين يتمتعون ـ بمباهج الحياة ومن ناحية أخرى يستطيع الطفل الذى نشأ وترعرع فى القرن العشرين أن يقاوم مرضا معديا بطريقة أفضل مما يقوم به أطفال العصر الحجرى ، وربما تميز بشخصية فريدة وليس لها طابع خاص ، وقابلة للتكييف عندما ينمو

ومن الواضح ان الاختلاف بين الاثنين ينتهي عند هذا الحد • وربما كان من المسلم به ان كل جنس من الاجناس البشرية يبقى أصلا كما هو دون أن يتغير طوال الفترة بأكملها • وربما يصبح علـم تحسين النسل الذى يهدف الى تحسين جنسنا تحسينا سريعا عـن طريق وسائل التربية المختارة والخاضعة للاشراف والتوجيه ، عاملا فعالا فى السياسة التى ستظهر فى المستقبل البعيد • ولكن تأثيره على السياسة التى ظهرت فى الماضى أو السياسة القائمة فى العصر الحاضر لا يكاد يذكر •

وقد أصبحت هذه الحقائق الجديدة التى ظهرت فى بيئتنا والتى كانت سببا فى وجود هذه التغيرات السياسية الهائلة التى فصلتنا عـن أسلافنا ، أصبحت هذه الحقائق عادات جديدة فى التفكير والاحساس وكيانا جديدا نستطيع أن نفكر فيه ونحس به •

وسيعالج هذا الفصل هذا الكيان السياسى الجديد • وما من شك فى أننا نستطيع أن ندركه عن طريق حواسنا ولا سيما عن طريق حاسة النظر وكذا حاسة السمع • و لكن الانسان كغيره من الحيـوانات الاخـرى يعيش فى حياته وهو غارق فى بحـر من الاحساسات والتنهدات والانفعالات والمشاعر والعواطف العديدة ولا يدفعـه الى القيام بالتفكير أو بالعمل الا المؤثرات التى يعتقد انها ذات أهمية بالنسبة له • فكيف اذن تفصل الانفعالات الجديدة نفسها عن بقية النواحى الاخرى ويمكنها أن تكفل الحصول على نتائج سياسية ؟

والشرط الاول لضمان اثارتنا بأى شىء نحو دافع أو عمل معين هو أن يكون هذا الشىء يمكن ادراكه أى أن يكون مطابقا لاصله عندما رأيناه من قبل أو أن يكون مطابقا لشىء آخر سبق أن رأيناه. واذا كان العالم مكونا من أشياء تتغير أشكالها باستمرار واذا لم يكن هناك شىء يشبه شيئا آخر أو يشبه نفسه لاكثر من لحظة فى وقت ما ، فلن يستطيع الناس بوصفهم الحالى أن يعيشوا بتاتا بل أنهم سيتلاشون كما يتلاشى عشب البحر بين الامواج .

وكتكوت حديث الولادة يتجه الى ظل أى بناء للاحتماء به لان أى بناء بالنسبة له يشبه غيره . كما تسير الحيوانات عندما تشرق الشمس حيث ان شروق الشمس يتشابه من يوم لآخر كما أنها تجد ثمار الجوز وحشائش تتغذى عليها حيث ان ثمار الجوز والحشائش تتشابه وحداتهما .

ولكن ادراك الشبه لم يكن فى حد ذاته باعثا كافيا للعمل . فيجب أن يكون للشىء المدرك أهمية أيضا كما يجب أن نشعر بطريقة ما بأهميته بالنسبة لنا . فالنجوم تتألق كل ليلة فى السماء ولكن الناس بقدر ما نستطيع أن نقول ، هم الذين يتجهون للعمل ، وليست الحيوانات ، بادراكهم لها . ولا تتأثر الفراشة بوجود السلحفاة ، وكذلك البقرة فان بيت العنكبوت لا يعنى شيئا لها .

وأحيانا تظهر الطبيعة أهمية الشىء بالنسبة لنا آليا ، فزئير الحيوان

المفترس وصياح الطفل الذى يعانى شيئا ورؤية منظر الدم انما ينبعث من الاحساسات البشرية العديدة دون الحاجة الى خبرة أو تعليم تماما كما تعتبر حركات الارنب ووثبه بين فجوات الاشجار بالنسبة لثعلب جائع منفصلة انفصالا كليا عن أصوات الريح وألوان الاوراق والازهار . وأحيانا يتعلم الحيوان أهمية الاحساس فى معرض حياته الخاصة به كما يتعلم الكلب الذى يدرك مغزى وجود الفأر بالغريزة مغزى الكرباج .. نتيجة للانطباعات التى تولدت فى نفسه عندما رآه أو أحس به لاول مرة من قبل . وذلك عن طريق الخبرة والترابط.

وعلى الانسان فى الميدان السياسى ان يعمل أشياء من هذا القبيل ويتفهم مغزاها . ولابد أن يصبح التكتيك السياسى من الامور الهينة اذا كانت بطاقات الاقتراع السرى شيئا طبيعيا واذا تملك الشاب الذى لم يسمع عنها شيئا من قبل شعور جارف برغبة فى التصويت عند تسلمه بطاقة الاقتراع فى سن الحادية والعشرين من عمره .

ولذلك تصور الطريقة العامة للتنظيم الاجتماعى والسياسى بين المتوحشين ، العملية التى يتم خلالها خلق تشابه سياسى مصطنع وسهل الادراك . واذا أراد رئيس أن يعتبره الناس رئيسا لهم فعليه أن يطابق نفسه تماما . بأن يعيش فى نفس المنزل الذى كان يعيش فيه ويلبس نفس الملابس التى كان يلبسها ويفعل نفس الاشياء عاما بعد عام . كما أن على من يخلفه أن يقلده فى ذلك . واذا أدركنا ان

الزواج أو عملية البيع تتبلور فى عملية العقد فيجب أن تتم هـــذه العملية فى مكان تقليدى وبنفس الحركات التقليـــدية • وفى بعض الحالات النادرة يثير الشىء الذى ظهر فى الوجود بطريقة مصطنعة وقد أدركه الناس تأثيره الدافع بواسطة تكييف تلك الترابطات الموروثة بيولوجيا التى تساعد الانسان والحيوانات على تفهم الاحساسات دون الحاجة الى خبرة • فيجد اللون الارجوانى وغطاء الرأس المصنوع من جلد الذئب الذى يلبسه المحارب أو القناع الطبى الذى يلبســـه الطبيب صدى مباشرا فى طبيعتنا النظرية تماما كما تتأثر النفـــوس بابتسامة المرشح الحديث • ولكن حتى فى مجتمعات العصور الاولى ترجع ثورة ادراك الكيان السياسى المفتعل عامة فى اثارة الدافـــع الى الترابطات المكتسبة فى اللاشعور على مر الزمن • فالطفل الذى يضرب بالعصا أو يرى أباه يركع أمام الملك أو الحجر المقدس نجده يرهب العصا والملك والحجر المقدس عن طريق الترابط فى اللاشعور •

وغالبا ما يرتبط الادراك ببعض النقط الخاصة المعينة (ســـواء تطورت تطورا طبيعيا أو نشأت نشأة غير طبيعية) فى الشىء المدرك • ومن ثم تصبح هذه النقط علامات ترمز للشىء بوجه عام • وتبين الحقائق المتطورة للتقاليد الخاصة بالحيوانات الوضيعة أن الرائحـة العفنة رمز مسلم به للشىء الفاسد بالنسبة لبعض الحشرات التى تأكل اللحم مما تجعلها تضع بويضاتها على الزهرة، واذا قلدت ذبابة مجموعة

من الزنابير السوداء والصفراء فان ذلك رمز كفيل بابعاد الطيور • وكانت معظم عملية الادراك في المجتمع السياسي القديم تتم عن طريق هذه الرموز • ولا يستطيع أحد أن ينصب ملكا جديدا يشبه سلفه الراحل من جميع ا لوجوه الذي قد يكون رجلا مسنا • ولتخطي هذه العقبة يتخذ رمز للملك لا رمز لاحد غيره ، ويمكن ان يسبغ عليه من الصناعات ويرفع من شأنه حتى يصبح رمزا مجسما لا تخطئه العين وهكذا يعرف الناس الملك كملك لانه يحمل هذه الصفة الملكية• وهذه الصفة ملازمة للاسم • وربما كان هناك في النظام المكسيكي الخاص بالكتابة بالرموز رمز يشير الى الملك •

والى هذا الحد أصبح من الصعب عدم اخضاع العملية كلها للنشاط العقلي • وسوف يلقي احساسنا العام •• وكذا احساس فلاسفة القرن الثامن عشر العام المنظم ، ضوءا على الخوف الذي يشعر به رجل القبيلة نحو الخاصة الملكية قائلا بأنه كان يتذكر دائما بأن هناك فروقا اجتماعية أصلية بين الحاكم والمحكوم أو بين اللذة والالم التي ثبت من التجربة انها مستمدة من السيادة الملكية والاحكام التي يصدرها الملك ولذلك فانه يقرر عن طريق التفكير العقلي عند رؤيته لهذه الخاصة الملكية ان يتهيب شخص الملك •

ومن الصعب عندما يكون الرمز الذي أثر في حافزنا رمزا لغويا حقيقيا أن لا تطمس الترابطات الانفعالية المكتسبة بواسطة الاستدلال

العقلى • ولما كنا نتعرض للاثارة عن طريق احدى المؤثرات الصوتية والرمزية التى نسميها باللغة الى حد أنها تجعلنا تخضع للتفكير المنطقى فاننا نميل الى تجاهل مؤثراتها الاخرى • وليس هناك شىء أسهل من اجراء وصف لطريقة استعمال اللفظ استعمالا منطقيا ، ووضع حد لبعض الاحاسيس ـ كتذكر فرد ، مثلا ، لشخص ملكى ـ عن طريق الفكر ، واختيار صفة فريدة ـ كالقرابة مثلا ـ تشترك فيها هـذه الاحاسيس واطلاق اسم الملك على هذه الصفة ، واستعمال هذا الاسم لتمكيننا من تكرار عملية الفكر • وعندما نحاول شعوريا أن نفـكر تفكيرا سليما باستخدام اللغة فان كل ذلك سيحدث تماما كمـا كان سيحدث اذا لم يتطور استخدام الصوت اللغوى اطلاقا محاولين بذلك انشاء ألوان ونماذج وصور • ولكن أى كتاب فى علم النفس سوف يبين لماذا تخطىء هذه الطريقة فى حالة زيادتها عن الحد المقرر لهـا وفى حالة نقصها عن ا لمعدل اذا اتخذت على أساس أنها وصف للذى يحدث فعلا اذا استخدمنا اللغة بغرض دفعنا للعمل •

وقد قام كبار علماء النفس الذين ينهضون بأعمـال عظيمة فى معاملهم بتجربة لبيان تأثير أهمية الكلمات التى يحاول كل فرد أن يستخدمها لنفسه • مثال ذلك اذا دعوت صديقا ليكتب بحـروف كبيرة على بطاقات مجموعة من المصطلحات السياسية الشائعة مثل أمم «أحزاب ومبادىء وهكذا» • أمام ساعة تسجل ١ على ١٠ من الثانية ثم

فلبت البطاقات ولاحظ الارتباطات التى تدخل في شعوره باستمرار ،
فستكون أولى الارتباطات هى التى تظهر بوضوح غير منطقية وآلية .
واذا كانت كلمة انجلترا فان العلامات البيضاء والسوداء فى الورقة
قد تثير فى الذهن فوراً صورة معينة متبوعة باحساس غامض وشعور
انفعالى بالمحبة غير مدرك ادراكا كاملا ، أو ربما شعور بالقلق أو
بتذكر فكرة غريبة . هذا اذا كان العالم الذى يقوم بالتجربة يعتمد
على حاسة النظر . أما اذا كان يعتمد على حاسة السمع فان العلامات
ستثير فى الذهن فى بادىء الامر صورة صوتية حية قد يتبعها رد فعل
عاطفى يشبه الاحساس السابق وأنا اعتمد على حاسة النظر
وتتخذ الصورة بالنسبة لى الشكل المثلثى غير واضح المعالم . وقد
وصف لى بعض الاشخاص الآخرين ممن يعتمدون على حاسة النظر
صورة علم أحمر أو صورة حقل أخضر (رأوها من نافذة القطار)
جاءت الى مخيلتهم آليا كما جاءت مرادفات كلمة انجلترا . وبعد ان
تكون الصورة الآلية أو الصورة الصوتية وما يتبعها من احساسات
وانفعالات بحتة يأتى بعد ذلك « معنى » الكلمة أى الاشياء التى
يعرفها الفرد عن انجلترا التى استقرت معانيها فى الذاكرة بطريقة
آلية الى حد ما ، فى بادىء الامر ، ولكنه يحتاج لظهوره الى مجهود
شاق . ولا شك ان كل الافكار والاحداث التى تميزت بها حياتنا
السابقة قد وضعت حلا للمسألة الخاصة بماهية الصور والاحاسيس
التى ستظهر وتثبت وجودها فى كل مرحلة ، ولكن هذه الصور

والاحاسيس تظهر فى اللحظات الاولى على الاقل من التجربة قبل أن يكون لدينا متسع من الوقت للتفكير والاختيار .

وقد تنشأ طريقة مماثلة بواسطة رموز أخرى بجانب اللغة . واذا استبدلنا فى التجربة القبعات التى يمتلكها أفراد العـــائلة ببطاقات مكتوبة فان بقية التجربة ستستمر على منوالها « الصورة » الآليـــة يلازمها آليا ترابط انفعالى يتبعه فى خلال ثانية أو حوالى ذلك ، ادراك المعنى ادراكا اختياريا . ثم تأتى المرحلة الاخيرة وهى القيام بمجهود لا يستهان به فى التذكر والتفكير . وقد كان تنيسون دقيقا فى وصفه للاحوال العقلية المتباينة التى ينظر اليها معظم الناس على انها اتحدت فى حالة واحدة بواسطة الذاكرة وذلك لانه قد ولد ليكون شاعرا هذا ومن جهة أخرى لان افراطه فى التدخين ربما جعل تفكيره يشرد قليلا من وقت لآخر .

ويستطيع الفرد أن يفهم الوضع بوضوح أكثر اذا تأمل فى مظاهر العقيدة . فالعقيدة الوحيدة الهامة التى آمن بها العالم النفسانى هى نظرية الوضعية لاوجست كونت . فيحتاج العالم النفسانى الى أن يقوم كل فرد من أتباعه برسم صورة مرئية للانسانية لنفسه حتى يتمكن من ايجاد حافز قوى وكاف لتحقيق العمل الاخلاقى فى حالات تشتت الفكر والاغراء التى تعترض الحياة اليومية . فكان على زميله أن يقوم بعملية التأمل العقلى لفترة محددة فى كل صباح ، فى شكل امرأة

يتذكرها ويعرفها جيدا ويحبها كأمه ، أو زوجته أو أخته . كان عليه أن يجعل هذا الشكل فى نفس الطابع وفى نفس الثوب حتى يمكن أن يأتى فى مخيلته آليا كصورة عقلية محددة ترابط بسرعة مع كلمة الانسانية . ويتلازم مع ذلك آليا الحافز الاصلى الى الشعور بمحبة الشخص الذى تصوره . وبمجرد ان يحدث ذلك يأتى معنى الكلمة وتأتى كذلك الترابطات الانفعالية الملازمة لهذا المعنى كاملة ولكنها أقل قوة . وقد أخذ هذا الاختراع من أشكال معينة خاصة بأسلوب الفكر فى كنيسة روما الكاثوليكية من جهة ومن جهة أخرى من تجارب كونت الخاصة التى قام بها لبيان تأثير صورة مدام دى فوكس على نفسه وقد يرجع أحد الاسباب التى عاقت استعمال هذه الطريقة على نطاق واسع الى أن الناس بوجه عام لم يعتمدوا على حاسة النظر مثلما اعتمد كونت .

ويبين كاردينال نيومان فى احدى صفحات كتابه « الاعتذار » كيف كون لنفسه صورا لامم مجسمة ويشير الى أن بجانب اعتقاده بوجود مثل هذه الصور فى الواقع يكمن احساسه بامكان خلقها . ويقول أنه بين ملامح « الشخصية والغريزة » « للدول » و « الحكومات من الهيئات الدينية التى قاسى منها كثيرا بالارواح » المتداعية والمتقلبة الاطوار والقاسية الى حد ما أو النبيلة أو العالية أو أو الخيرة أو الشريرة بالنسبة للحالة التى تكون عليها ... وتفضيلى

للناحية الشخصية عن الناحية المجردة كان من الطبيعى ان يؤدى بى الى هذا الاتجاه . وأعتقد ان ملامح النبى دانيال قد تأثرت بـذكر « أمير الفرس » وأعتقد ان أبوكالبس قد تعرض للمخلوقات الوسيطة عند نشر « ملائكة الكنائس السبع » .

« وفى عام ١٨٣٧ .. قلت .. اذا أسفت على انجلترا كثيرا من الفضائل العالية مع ضآلة شأن الكاثوليكية فيها الى أن جون بول لا يمثل روحا من الجنة أو حتى من النار » .

ويتبع هارناك نفس الطريقة . فهو عندما يصف أسباب توسـع الدين المسيحى فانه يركز الانتباه الى استعمال كلمـة « السـكينة » و « امكانيات خلق صورة مجسمة التى تقدمها » . ومن المحتمل أن يكون أصل هذا الاستعمال مستمدا من مجهود عقلى أصلى مجرد أسبغه أحد الفلاسفة المسيحيين على الصفات العامة لجميع المذاهب المسيحية على الرغم من أنه من المحتمل أن تكون منبعثة من طريقة التـكييف التى تستعمل فى المسائل الجارية . ولكن عند استعمالها كان للكلمة تأثير كبير على نفوس معظم الناس حتى أثيرت الانفعالات آليا عـن طريق التجسيم ولكن لن تصل الى حد اثارة الانفعالات التى تتبـع تحليل المعنى تحليلا كاملا . وتاريخ العقيدة حافل بأمثلة عديدة من هذا القبيل . « فالصدق المجسم فى قالب قصة » له تأثير انفعالى أكبر من الصدق غير المجسم ، كما أن التحقق « البصرى » من الشخصية

الرئيسية للقصة أقوى من القصة نفسها، والصورة الصوتية التى تتكون عند ذكر اسم مقدس « تنحنى له الرءوس » أو اسم قد يتكون فى الذهن وربما لا يمكن ذكره على اللسان له تأثير أكبر فى اللحظة التى يبلغ فيها الشعور أشده من التأثير الذى يثيره التحقق من المعنى . ومن المحتمل أن تكون الاشياء الحسية - كالطعام المقدس الذى يستطيع الفرد أن يراه ويلمسه - أكثر حقيقة من الاشياء السماوية المقابلة لها .

واذا اتجهنا الى السياسة لاستعراض أمثلة من هذا النوع فاننا سنكتشف مرة أخرى كيف أننا سنجد صعوبة أكثر فى هذا المجال عن مجال الدين أو الاخلاق أو التعليم ، فى مقاومتنا لعادة ابداء تفسيرات عقلية للتجارب الانفعالية فالكيان السياسى الرئيسى يتمثل بالنسبة لمعظم الناس فى وطنهم فعندما يموت الرجل من أجل وطنه ، فما الشىء الذى مات من أجله هذا الرجل ؟ ان القارىء وهو جالس فى مقعده يفكر فى حجم ومناخ وتاريخ وسكان بعض المناطق فى الاطلس ويفسر عمل الوطنى بعلاقته بهذه الاشياء كلها . ولكن الذى يبدو أنه سيحدث عند اشتداد المعركة لا يتمثل فى تكوين أو تحليل منطقى لفكرة وطن الفرد ، ولكن الذى يحدث هو هذا الاختيار الآلى الذى يقوم به العقل لشىء ما ذى معنى يتبعه شعور المحبة الذى يظهر آليا متعادلا وهو ما أشرنا اليه من قبل . وتظل فترة

خدمته العسكرية حية وقائمة فى مجرى أحاسيسه طوال حياته •
وتساهم الصفحات المطبوعة لكتاب الجغرافية ورؤية الشوارع والحقول والوجوه ، وصورة الاصوات أو العصافير أو صرير الانهار ، يساهم كل ذلك فى تكوين حقائق لا نهائية يستطيع ان يستخلص منها فكرة عن وطنه • فما النتيجة التى سيصل اليها فى آخر الامر ؟ ربما سيصل الى معرفة شجرة عائلته التى تثبت وجوده • وقد يصل ، وهــذا احتمال أقوى من غيره ، الى نوع من التجسيم لبلاده ، أو عادة أو خيال ، يلائم وجود كيان يرغب الفرد فى قيامه بعيدا عن التجــربة الملموسة التى لم يتحقق منها بعد • فاذا كان ايطاليا فقد يكون اسم ايطاليا بحروفها الموسيقية • واذا كان فرنسيا فقد يكون تمثال فرنسا الرخامى بسيفه المكسور كما رآه فى ساحة الميدان فى احدى مدن بلاده أو نشيد «المارسيليز» الذى يثير الحماسة • لقد مات الرومانيون من أجل نسر برونزى ومات الانجليز من أجل علم والاسكتلنديون من أجل صوت الابواق •

وقد يستطيع انسان مرة كل ألف عام أن يقفَ فى جمع جنائزى بعد انتهاء القتال • وربما يتأثر قلبه عند سماعه لخطبة بيركليس المجردة بتلك الصفات التى تبرز مكانة أثينا للعالم من بين الصفات العــديدة التى يتميز بها الاثينيون فى الحاضر والماضى • ولكن لن يتعدى كل ما سيتذكره بعد ذلك الا أصداء صوت بيركليس وحــركات يده ، أو نشيج أم القتيل •

كان من بين أهم الاحداث التى ظهرت فى تطور السياسة هى الكشوف المتتالية للكيان الاخلاقى - الذى يتمثل فى بعض المثـــل كالعدالة والحرية والحق • وعند تتبع أصلهـا نجد أن التجـــريد المنطقى الشعورى الذى اسقنا الى تقبله كتفسير لجميع المظاهر العقلية، انما يرجع فى معظمه الى الحقيقة التاريخية • فلدينا مثـــلا بيانات معاصرة للمحادثات التى يقارن ويحلل فيها سقراط اجابات المحلفين والرجال الرسميين التى يبدونها رغما عنهم ، ونحن نعلم أن عمله كان سببا فى جعل كلمة العدالة تعبيرا سياسيا ذا تأثير كبير •• ومن المسلم به أيضا أن عملية تطبيق هذه الكلمة بذاتها التى كانت تتم ببطء بواسطة الاستعمال العام لعدة قرون قبل ســـــقراط قد زادت من سرعتها من وقت لاخر بفضل شخص ما عاقل مغمور تحمل فى سبيلها مجهودا كبيرا من التفكير الواعى • ولكنه بمجرد ان انتهى العمل فى كل مرحلة أثبتت العدالة وجودها كتمثال صخرى تعاقبت عليه أجيال متوالية من الفنانين ، وظهرت كالهام مباشر وليس كشىء مجرد • وما من شك فى أن هذا الالهام قد جعل العلامات الرمزية القديمــة بالية عديمة القيمة ولكن يبدو ان الشىء الذى أمكنه التغلب عليها هو شىء حقيقى ظاهر للعيان وليس أسلوبا صعبا للمقارنة والتحليل • وقد تحدث أنتيجون فى الرواية باسم العدالة الامر الذى أرسله حامـل صولجان الملك عن طريق الرسول المقرب اليه • ولكن العـــدالة فى رأيها كانت آلهة لازمت آلهة الارض ، كما حكم أبناء المواطنـــين

الاثنينن الذين أظهروا أعجابهم بأنتيجون بحكمه على سقراط بالاعدام لان تحليله المنطقى قد جعل الآلهة أشياء مجردة ٠

ويرجع التفوق الروحى للرسل اليهود البارزين كثيرا الى الحقيقة التى لا شك فيها وهى انهم استطاعوا أن ينشروا فكرة أخلاقيــة فى قالب انفعالى قوى دون أن يضعوها فى قالب التجسيم ، انهم يقومون بذلك لانهم ينظرون اليها دائما من ناحية علاقتها بجميع الآلهة الى أقصى حد ٠ وكتب آموس يقول : « انى أكره الولائم التى تقيمهـــا وأمقتها ولن أشم رائحة جو اجتماعاتك ٠٠٠ ابعد عنى أصـــوات أنغامك لاننى لا أريد أن أسمع نغم آلتك الموسيقية ٠ ولكن دع حــكم القضاء ينساب كالمياه والعدل كالنهر الخالد » ٠ والحكم٠٠والعدل٠٠ ليسا من الآلهة الا أن الصوت الذى سمعه آموس لم يكن صوت شىء مجرد ٠

ويمكن أحيانا خلق كيان أخلاقى أو سياسى جديد عن طريق تأمل داخلى مباشر عنها بالطريقة البطيئة للتحليل الاصلى ٠ ويلاحظ أحد المتأملين العباقرة أن تشابه الاشياء الرئيسى يحتل مكانا فى عقول الناس مثال ذلك الدافع الذى يقود الفرد الى الشعور بالغضب نحو أخيه ، الدافع الذى يؤدى اله القتل ، والكرم الممثل فى نقود الارملة القليلة وفى ذهب الرجل الغنى وتبذير الفاسق أو رئيس الحفل ، ولكن عندما يموت السيد فغالبا ما يتلاشى شبحه بموته ٠ وقد أصبحت آراء

أفلاطون قواعد النظام سحرى ، وانتشرت تعاليم المسيح التى تقول بأن على كل فرد أن يعطى كل ما يمتلكه للفقير لدرجة أن ثلث أراضى أوربا أصبحت أملاكا غير خاضعة للضرائب يحتكرها رجال الدين الاغنياء .

وان هذه العلاقة الاخيرة بين الالفاظ والاشياء هى التى تكون العقبة الرئيسية للتفكير فى السياسة . وتتصف الالفاظ بالجمود وسهولة تجسيمها وارتباطها الوثيق بالمحبة والتحيز ، وتعتبر الاشياء التى ترمز اليها الالفاظ غير ثابتة . وكما يقول اليونانى فان الاخلاقى أو المعلم يهتم فى أغلب الاحيان بالانواع « الطبيعية » بينما يهتم السياسى دائما بالانواع المفتعلة أو المصطنعة . فاذا نسى الفرد معنى الامومة أو الطفولة فان الطبيعة قد أوجدت لنا أمهات وأطفالا لا يمكن تجاهلهم ، يظهرون فى كل جيل مطابقين للواقع . ويستطيع الكيميائى أن يتأكد من أنه يستعمل اللفظ فى نفس المعنى الدقيق الذى كان يستعمله سابقوه بعمل لا يستغرق الا دقائق قليلة فى معمله . بينما نجد الشىء الذى يكون له اسم فى السياسة دائم التغير ، ومن المحتمل جدا أن يختفى ثم يظهر مرة أخرى بعد مئات الاعوام . وقد عرف أرسطو « الدولة » بأنها الكيان الذى يقوم المواطنون فيه « ككل » بتولى الحكم طبقا للصالح العام ، واستخلصت كتاباته من نظم الحكم الذاتى فى تلك الدول التى تلاشت من قبل تحت قوة مقدونيا . وبعد قليل لم يكن لمثل

هذه الدولة وجود على الاطلاق ، واذا رجعنا الى مفهوم أرسطو للدولة نجد أن « أوديسا » هى التى أحيت اللفظ الذى حدده من قبل . ولم تكن مجرد مصادفة فى علم تاريخ اللغة أن جعلت « عدالة الحق » شيئا متناقضا ظاهريا . ومنذ الوقت الذى واصل فيه القضاة المستشارون الرومان عمل فلاسفة اليونان وعن طريق الاسئلة والاجوبة التى تؤدى الى مفهوم العدالة « الطبيعية » ، فقد تعرضت مثل جميع المفاهيم السياسية الاخرى لخطرين . فطالما كان المجهود الاصلى للشىء المجرد غير تام الشيوع فقد عمد كل جيل من الاجيال التى تستخدم الالفاظ الى تغيير استخدامها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، تتغير أفعال ونظم الانسان التى تم استخلاص المفهوم منها ، تغيرا جوهريا . وعلى الرغم من أن مخطوطات المحامين الرومانيين استمرت قائمة فلم يكن للقانون الرومانى وللدساتير الرومانية أية أهمية . وعندما يستعمل أحد ملوك العصور الوسطى أو قاضى محكمة التفتيش تعبيرات الامبراطور جستنيان فلن يحدث أن يتغير معنى الالفاظ فحسب ، بل ستتلاشى الحقائق التى قد تضيفها الالفاظ على معناها القديم . وعلى العموم فان قوة الالفاظ المجردة الانفعالية ستظل قائمة ولقد استطاع القانون المدنى والقانون العام للعصور الوسطى أن يعرضا كل ألوان الضغط والتعسف بالقوة ذلك أن « روما » كانت لا تزال تتمتع بالشعور بالاحترام الموروث . فمنذ مائة عام اشتهر أحد الامراء الالمان بأنه أقوى من جيرانه لانه كان امبراطور رومانيا وكان يسمى باسم قيصر .

ولقد واجهت المصاعب والشكوك نفسها ، كتلك التى تؤثر فى تاريخ الكيان السياسى عند بدء تكوينه رجل السياسة الذى انشغل فى اقامة كيان سياسى جديد • وكان على الرجال البارزين من آمثال ستين وبسمارك وكافور أو ميترنيخ الذين قاموا فى القرن التاسـع عشر باعادة بناء أوربا التى أنهكتها انتصارات نابليون ـ كان عليهم أن يقيموا دولا جديدة يشعر الناس نحوها بالاحترام والحب كمـا يجب أن يبدوا استعدادهم باطاعة أوامر حكوماتها وأن يضحوا بحياتهـم فى سبيل استمرار بقائها • ولقد اندمجت الاجناس واللغات والعقـائد الدينية فى أنحاء أوربا الوسطى ، كما ان الذكريات التاريخيـة للممتلكات والدوقيات والاسقفيات التى كانت مقسمة على الخريطة أصبحت باهتة وغير ذات أثر فى النفوس • ليس هناك ما هو أيسر من انتاج وتوزيع الاعلام والعملات النقدية والاسماء القومية • ولكن التأثير الانفعالى لهذه الاشياء يعتمد على الترابطات التى تحتاج الى عامل الوقت لظهورها ، والتى قد تضطر لمنافسة الترابطات التى ظهرت من قبل فالولد فى لومبارديا أو فى غاليسيا قد يرى الجنود أو ناظـر مدرسته يحيون العلم النمسوى ولكن مشاعره الحقيقية لا تظهر الا عندما يهمس أبوه أو أمه باسم ايطاليا أو بولندا • وربمـا تصبح الترابطات القديمة والترابطات الجديدة متعادلة التوازن تقريبا كما هو الحال بالنسبة لها توفر •

وفى تلك العصور ابتعد الناس عن الترابطات الانفعالية باللفظ القومى واتجهوا الى البحث عن معناه • وهم يتساءلون عن ماهيـــة الامبراطورية النمسوية أو الالمانية • وطالما لا يوجد سوى « بابا » واحد فقد ورث الناس هذا الاحترام القديم ابنا عن أب دون التفكير فى ذلك الاحترام • وعندما كان هناك بابوان فى روما وفى أفينون بدأ الناس يستفهمون عن أساس تصيب البابا • وفى بعض العصور ذهب بعض الناس الى أبعد من ذلك أيضا • فانهم لا يكتفون بالسؤال عن معنى لفظ الامبراطورية النمسوية أو لفظ البابا ولكنهم يبحثون فى طبيعة الاشياء عن السبب الرئيسى الذى من أجله تعيش الامبراطورية النمسوية والبابوية •

ولذلك يجب أن يقوم بناء الامة على مستوى سليم • فللاســـم القومى وللعلم القومى وللنشيد القومى وللعملة القومية تأثير غير بعيد عـن المنطـق تماما قائم على الترابطات المألوفـة • فيعمد رجال الدولة الرسميون جاهدين الى ايجاد معان كثيرة لمثل هذه الرموز بقـــدر الامكان• ولو قام جميع أفراد الدولة بالخدمة فى جيش واحد، والتكلم والتفاهم بلغة واحدة أو حتى استعمال حرف أبجدى لم يعد مستعملا فى مكان آخر ، فان الاسم القومى سيعنى كثيرا بالنسبة لهم • وسيجد السكسونى اجابة كاملة لنفسه عندما يسأل : « ماذا يعنى أن أكون ألمانيا أو فرنسيا ؟ » ، واذا تحولت حرب فردية ناجحة لتصبح حربا عامـــة

فانها لن تخلق تاريخا مشتركا فحسب بل ستخلق أيضا شعورا عاطفيا وراثيا عاما • ويحتمل أن يقوم القوميون جاهدين بمحاولة احياء الترابطات الانفعالية المتصلة بالمناطق القومية القديمة وتقويتها عن طريق الاغانى والصور واثارة الماضى ـ وبجانب كل ذلك ستسير المناقشة الفلسفية الاصلية المتعلقة بالمزايا المستمدة من الدول الكبيرة أو الصغيرة أو العنصرية أو الاقليمية والتى ستصل الى رجال الدولة الرسميين وحالتها من الدرجة الثانية والى المواطن وحالتها من الدرجة الثالثة • ونتيجة لذلك نجحت ايطاليا وبلجيكا والامبراطورية الالمانية فى أن تجعل من أنفسهم دولا تقوم على أساس متين من الوطنية ، وربما فشلت النمسا الهنجارية فى ذلك اذا ما جاء وقت الشدة •

ولكن اذا كانت عملية اقامة دعائم الدولة فى أوربا فى القرن التاسع عشر شاقة فان رجال الدولة الرسميين فى انجلترا يواجهون عملا أصعب فى خلق شعور بالوطنية نحو الامبراطورية فى القرن العشرين • فليس لدينا حتى اللفظ الذى تلازمه أية ترابطات انفعالية لاطلاقه على المملكة المتحدة بنفسها • فلا يوجد أى شخص انجليزى يتأثر بلفظ « بريطانى » كما أن لفظ « انجليزى » يثير فى نفوس الاسكتلنديين الغضب ، وكذا الحال بالنسبة للايرلنديين الذين يشمئزون عند سماعهم لكلا اللفظين • ونشيدنا الوطنى سطحى ونموذج خال من التأثر لكلمات وموسيقى الروايات التمثيلية فى القرن الثامن

عشر ولا توحى صورة سانت جورج الصغيرة على العملات الذهبية أو الشكل العسكرى على العملات الفضية بأى تأثير على نفس أى فرد • وما من شك فى أن العملة النحاسية الجديدة تحمل شكل مس هيكز بيش الجميل • ولكننا جعلناه صغيرا جدا ويشبه المرأة الى حد بعيد لدرجة أنه فقد التأثير الانفعالى الذى نجده فى الصـــورة العظيمة للشخصيات البارزة فى كل من فرنسا وسويسرا •

وتتمثل الصورة المجسمة الوحيدة لوطن الفنان التى يستطيع أن يدركها ، فى صورة جون بول حيث يبدو كمزارع ضخم شرس يعيش فى أوائل القرن التاسع عشر • ويعتبر أحد نماذجنا الوطنية وهو « العالم البريطانى » مقبولا على الرغم من أنه ينقصه الجمال حيث يشبه قطعة القماش التى تتكون من أجزاء متباينة • ولكن مرادفاته تتجه الى الناحية العسكرية البحرية •

واذا خرجنا خارج المملكة المتحدة فاننا سنظل فى أسوأ حال • فليس للمملكة المتحدة التى تضم بريـــطانيا العظمى وايرلنـــدا والمستعمرات والمحميات البريطانية اسم مختصر أو لفظ يدل عليهـــا أكثر من لفظها الحالى • ولقد استخدم رجال الدول الرســـميون والكتاب البارزون خلال مؤتمر المستعمرات كل وســيلة من وسائل التعبير والاشارة المعتدلة لتجنب ايذاء شعور أى فرد باستعمال تعبير « كالامبراطورية البريطانية » • وأى منطقة على خريطة العالم تكون

ملونة باللون الاحمر بالنسبة لسيدني بولين ورسامي الكاريكاتير في أوربا لا تثير أي شيء في الذهن غير صورة « جون بول » بعينيه الجائعتين وفمه الضخم ويديه المتوحشتين .

واذا سأل أحد البوير أو الهندي أو الكندي الامريكي نفسه عن معنى عضوية الامبراطورية ـ وليست « المواطنة » كما تطلق على خمسة أسداس سكان الامبراطورية لان استعمالها لن يؤدي المعنى المطلوب ـ فانه سيجد صعوبة كبيرة في الاجابة عن هذا السؤال واذا سار في الشوط الى أبعد من ذلك وسأل عن الغرض من وجود الامبراطورية فانه سيجد من يخبره أن سكان بريطانياالعظمى هزموا نصف العالم في نوبة من نوبات الاندفاع ولم يتح الوقت للتفكير في عامل خارجي لتبرير هذا العمل . ويتمثل الباعث الوحيد للذكرى أو للانعكاس الذي يستطيع أن يثير في نفسه الانفعال بالوطنية في القول الذي طالما أبرزته شهرة الامبراطورية الموروثة واعتمدت عليه بالنسبة للحرية السياسية . ولكن تعتبر الجريدة السياسية حتى في أنبل معانيها نوعا سلبيا ، وتحمل الكلمة معاني متباينة في البنجال وروديسيا وأستراليا .

وعلى العموم تشكل الدول نوعا واحدا فقط من بين الانواع المتعددة للكيان السياسي . وبمجرد أن تجتمع أية مجموعة من الاشخاص تحت اسم سياسي عام فقد يتخذ هذا الاسم ترابطات انفعالية

وكذا معنى يمكن تحليله تحليلا عقليا ، فمثلا تنقسم ضواحى برمنجهام الى مقاطعات منفصلة لتيسير الامر على الحكومة المحلية • ويقال ان مبدأ الوطنية المتأججة المحلية يتطور فى هذه المقاطعات ، ذلك لانها تحتل مكان القرى القديمة من ناحية ، ومن ناحية أخرى لان مباراة كرة القدم للمحترفين الاسكتلنديين تسمى باسمهم ، ومن ناحية ثالثة لان الحوافز الانسانية تحتاج لشيء تتعلق به ، ويقـــال ان غـــرب بروموينش يعادى أستون كعداء أصحاب اللون الازرق لاصحـــاب اللون الاخضر على «المسرح البيزنطى» • ولقد نشأت فى لندن فى عام ١٨٩٩ ٢٩ مقاطعة جديدة تحت تأثير مثل برمنجهام بأسماء ـ بالنسبة لمدينة ويستمنستر على الاقل ـ اختيرت أصــلا لاحيــاء الترابــطات الانفعالية التى كادت ان تتلاشى • وعلى العموم فقد تعلم عدد قليـــل جدا من سكان لندن كيف يشعرون أو يفكرون أساسا كمواطنين تابعين لمقاطعاتهم ، وتقوم المدن الفسيحة ولكنهم لا يرونهــا ، أو تخترع المعاطف ذات الاكمام الطويلة ولكنهم لا يعلمون عنها شيئا • وتمثل مقاطعاتهم مناطق انتخابية ينتخبون فيها أسماء غير معروفة ينضـــوون تحت لقب عام اتخذه حزبهم السياسى شعارا له •

ويعتبر الحزب فى الحقيقة هو الكيان السياسى الاشد فعالية فى الدولة القومية الحديثة • ولقد ظهر التكوين الحزبى بظهور الحكومة النيابية على نطاق واسع • ولم تعرقل النظم الشرعية أو الدستورية من

تطوره ، ويعتبر أشد المحاولات التي قامت من حيث القوة ، لتكييف شكل نظمنا السياسية لحقائق الطبيعة البشرية الواقعية • ومن المحتمل أن يكون هناك ١٠ مليون ناخب أو أكثر في الدولة الحديثة ، ولكل فرد منهم الحق في أن يرشح نفسه في الانتخابات وأن يدافع عن آرائه الخاصة التي قد يعتنقها في أي مسألة سياسية محتملة بصفة كونه مرشحا في الانتخابات أو محركا لها • ولكن بالنسبة للمواطن الذي يعيش في مجرى الاحداث المستمرة ، لا يوجد الا القليل من زملائه المواطنين الذين يبلغون حوالي ١٠ مليون ، ممن يستطيعون العيش بعيدا عن التفكير أو الاحساس السياسي ، حتى ولو لم يعتنق كل فرد منهم الا رأيا واحدا في موضوع واحد دون أن يغيره طوال حياته • وهناك حاجة الى شيء أيسر وأكثر بقاء ، شيء يمكن ان ينال الاعجاب والثقة والذي يمكن أن يعرف في الانتخابات المتوالية باعتباره نفس الشيء الذي نال الاعجاب والثقة من قبل ، ويتمثل هذا الشيء في الحزب •

وقد يرجع أصل أي حزب معين الى عملية عقلية راسخة • ومن الممكن أن يكون هناك ، كما قال « بيرك » مجموعة من الرجال اتحدوا وجاهدوا متضامنين من أجل تحقيق المصلحة القومية على أساس مبدأ معين اتفقوا عليه جميعا • ولكن يعتمد نجاح الحزب عندما يصبح أمرا واقعا على حقائق الطبيعة البشرية التي يمثل التفكير الاصلي

احدى هذه الحقائق • وهو أولا وقبل كل شيء لفظ ، كغيره من الالفاظ ، يثير في الذهن عند سماعه أو عند قراءته « صورة » تحبو تدريجيا دون ملاحظتها الى ادراك معناها ادراكا اراديا • ومن الممكن أن يثير اللفظ وترابطاته العقلية الآلية الانفعالات العاطفيـــة كما في الحالات الاخرى • ومن واجب مؤسسى الحزب أن يضمنوا أن هذه الترابطات الآلية ستظهر بوضوح بقدر الامكان ، وأنها ستثير انفعالات كثيرة وقوية • ولا يوجد أى شيء ذو فائدة عامة لهذا الغرض أكثر من شارة الحزب • وما من شك في أنه كان بوسع أسلافنا السابقين أن يدركوا اللغة وأن الانفعالات البسيطة والقوية تتجاوب مع اللون بسهولة أكثر من تجاوبها مع الكلمة •

فقد كان الولد المسكين الذى مات في يوم ما وعلى صدره شارة نادى كرة القدم يحب نفس اللون ويكمن في نفسه شعـــور مباشر ووثيق بالمحبة •

وأما نشيد الحزب فيجد صدى في نفوس الناس الذين يتمتعون بآذان « موسيقية » أوقع من لون الحزب كباعث للانفعال • وطالما كان نشيد المارسيليز الذى يعتبر الان النشيد القومى لفرنسا ، هو نشيد الحزب الثورى فان تأثيره سيكون عظيما • وهو يتمتع للان بشهرة عظيمة خارج فرنسا • ولقد كان الاقتراح الذى أعلنه خبير سياسى محنك في « ويستمستر جازيت » عند موت جلادستون والذى يشير

الى أنه يجب توجيه جزء من المال المتحصل تحت رعايته لدفع نفقات تأليف أحسن لحن موسيقى ممكن بحيث يكون معبرا عن كيـان حـزب العمال فى جميع الاوقات ـ كان هذا الاقتراح اقـتراحا حكيما • وكان أحد الاخطاء القليلة التى ارتـكبها رجال من ذوى المهارة قاموا بتنظيم حملة الاصلاح هو فشلهم فى ضمان نشيد حسن مقبول •

ويأتى بعد ذلك الانفعالية التى يثيرها معنى الكلمة أو الـكلمات الاولى والبسيطة التى تطلق على اسم الحزب ولا يختلف عن الترابطات العاطفية للون والنشيد الا فى انه أقل تأثيرا • فيصف الاب اليونانى طفله « رائع جدا » أو « ماهر فى الرأى » • وبنفس الطريقة يختار مؤسسو الاحزاب أسماء تتصف معانيها أول ما تتصف بأنهـا تثير ترابطات عاطفية • وعلى العموم أمكن ايجاد ترابطات جديدة منذ بدء قيام الحزب وممارسته لنشاطه تهدف الى أن تحل محل المعنى الاصلى للاسم فى الترابط • فلا يفكر أحد فى أمريكا عندما يستعمل الاصطلاح جمهورى أو ديمقراطى فى معناه اللغوى • وأى فرد يفعل ذلك يعنى حقا انه اكتسب عادة عقلية تثير الملل ولا فائدة ترجى منها ، كعادة قراءة تاريخ اليونان مع الميل الدائم للاستعانة بالقاموس لمعرفة معانى الاسماء مثل أرسطوبولوس وثيوقريطوس • ولم تلبث الاسماء الطويلة المتقنة التى تؤكد نواحى محددة بالنسبة لسياسة الحزب ، نتيجة لذلك

ولكنها تتصل بترابطات جديدة منبعثة من تاريخ الحزب المطابق للواقع وأصبح حزب الديموقراطيين الدستوريين فى روسيا يسمى باسم كاديت وحزب العمال المستقل يسمى باسم ح٠ع٠م٠ ومن ناحية أخرى فمن المحتمل أن تظل الترابطات الانفعالية الاقل شعورية والتى أثارتها أسماء سياسية أقل حدة قائمة لمدة طويلة ٠ كان الاحرار القوميون الالمان حلفاء لها أهميتهم كبسمارك زهاء جيل بأكمله ، لان اسمهم يعبر بغير وضوح عن الشعور بالوطنية والحرية ٠ وعندما قرر أصحاب المناجم فى ترانسفال منذ بضعة أعوام تكوين حزب سياسى اختاروا اسم « تقدمى » ليطلقوه عليه بعد عدة مناقشات وكان هذا الاختيار اختيارا موفقا للغاية ٠ ومن الواضح ان الترابطات الاصلية للكلمة فى جنوب افريقية ما لبثت أن تلاشت ولكن فى الاماكن الاخرى ظل معروفا لمدة طويلة أن سير بيرسى فيتزباترك وحزبه يشعران بنفس النوع من العطف الديموقراطى نحو مجلس بلدية لندن مثلما كان يشعر مستر مكينون وود وزملاؤه ٠ واذا تحدث واحد الى بعض المستمعين الذين كملت ملكات النقد والمنطق عندهم فانه لن يقتنع بأن التصويت ضد جماعة معينة من الناس لانهم فضلوا أن يطلق عليها اسم «التقدميين» يعنى بالضرورة التصويت ضد التقدم ولكن فى نطاق الترابط الانفعالى المبهم والقائم تصبح للاسم الجيد قيمة سياسية حقيقية اذا كانت ترابطاته مدركة فى اللاشعور ٠

ومن ناحية أخرى يحاول معارضو الحزب اطلاق اسم عليه

يثير أحاسيسى بالكراهية .. وتعتبر التعبيرات الحزبية القديمة مثـل الهويج والتورى أمثلة واضحة لهذه الاسماء التى أطلقها المعارضون واستمرت قائمة زهاء نصف قرن تقريبا قبل ان تفقد ترابطاتها الاصلية السيئة الاستعمال . وكانت المحاولات الحديثة التى بذلت أقل نجاحا لانها كانت أكثر اتقانا فيعبر المتطرف بغموض عن اسم غير مقبول ولكن « المنشق » ، « والانجليزى الصغير » ، « ودافع ضريبة الطعام » تظل كتأكيدات يمكن قبولها أو رفضها بوعى أو ادراك .

وربما كان من الممكن توضيح العلاقة الكاملة بين الكيان الحزبى والحافز السياسى من ناحية فن الاعلان . ففى الاعلان يمكن ملاحظة العملية العقلية بعيدا عن تلازمها الاخلاقى . ويزداد التشابه بين الاعلان والسياسة الحزبية شيئا فشيئا فى المنهج . فيلصق الاعلان السياسى جنبا الى جنب مع الاعلان التجارى أو المسرحى على لوحات الاعلانات، ويقوم برسمها نفس الرسام وتتبع نفس قواعد الفن . ولنفترض ، نتيجة لذلك ، وجود رجل اخصائى بادارة الامور المالية يعتقد بأن هناك فراغا لاعلان كبير عن حملة ولتكن متعلقة بتجارة الشاى . وتختلف أوراق الشاى الحقيقية فى العالم كاختلاف آراء النـــاس السياسية الواقعية ، كما أنها تتغير بتغير هـــذه الآراء السياسـية . فتختلف كل ورقة شاى فى كل مزرعة شاى عن كل ورقة شـــاى أخرى . وربما تغير الرطوبة اذا استمر الجو مشبعا بها لمدة أسبوع

من طبيعة الكمية بأكملها فى أى مستودع شاى . ماذا يجب أن يعمله المعلن اذن لخلق « كيان » تجارى وتكوين فكرة عن « الشاى » تثير مشاعر الناس وتفكيرهم ؟ فمنذ مائة عام كان يعمد الى نشر عـــدة تصريحات متفائلة ومفصلة تشير الى الفرص التى تعرض أو وسائله فى التجارة أو بنشر اعلان فى الصحف يقول فيه ان « وليام جونز » الذى يعاونه جماعة من المشترين المحنكين سيحضر عمليات بيـــع الشاى التى تجريها شركة الهند الشرقية وسيشحن صناديق الشاى من أعظم مزارعه الصينية وأنه سيبيعها بالقطاعى لزبائنه بربح لا يزيد عن ٥ ٪ وهذا على العموم يمهد الطريق للعقل الناقد وعن طريقـــه سيتم الحكم عليها الان . فيجب ألا نعتبر مستر جونز شاهدا غـــير مغرض بالنسبة لاختياره العظيم ، أو نعتقد بأنه سيكون لديه دافع كاف لتبرير موقفه فيما يختص بمعدل الربح اذا اعتقد بأنـــه يستطيع أن يحصل على ربح أكثر .

ولذلك فان مثل هذا المعلن سيتجه فى هذه الايام الى التأثـــير على ترابطاتنا الآلية الواعية فى اللاشعور . وسيختار بعض التعبيرات مثل « شاى باراماتا » التى ستوحى فى نفوس معظم الناس باحساس غامض بأنه من شرق المناطق الاستوائية يرتبط معه فى الباطن تـذكر درس فى الجغرافية عن أستراليا . ثم يخطو خطوة أخرى لخلق صورة آلية فى الذهن تلازم الكلمة كان لها ترابطات انفعالية خاصة

بها من قبل • وفى الوقت الذى يكون قد تم فيـــه صرف مائة الف جنيه بحكمة لن يكون هناك أحد فى انجلترا يستطيع أن يرى كلمة « باراماتا » على طرد شاى دون أن يكون لديه حافز غامض يدفعـــه للشراء قائم على التذكر الذى يراوده فى أحلام اليقظة والذى يتعلق بجدته أو بالاسطول البريطانى أو بفتاة انجليزية جميـــلة أو أى موضوع آخر يختاره المعلن لترابطه مع الشعور بالثقة والمحبة • ولما كانت الموسيقى تلعب دورا كبيرا فى التعليم الانجليزى العام ، فمن المحتمل أن نستغلها بطريقة فعالة للاعلان وفى هذه الحالة سيظهر شاى باراماتا متصلا مثلا بأغنية عن عودة الجندى وتذاع عن طريق « جراموفون » فى كل محل بقالة •

ولهذا المثل مزايا ، كوسيلة لتوضيح الفكرة ، حتى انه لا يوجد عند هذا الحد ، شاى باراماتا ، ولم يستقر أحد بعد على معرفة أى نوع من الشاى قد يظهر تحت هذا الاسم • وما زال شاى باراماتا يتمتع بكيان تجارى خال من الشوائب ومبسط • ومن المحتمل أن يستقر الرأى فيما بعد على بيع نوع ردىء من الشاى بربح كبير حتى تتلاشى الترابطات الاصلية للاسم تدريجيا وتختفى عن طريق الشعور بخيبة الامل • أو من المحتمل ان يستقر الرأى على القيام ببيع أنواع مختلفة من الشاى تحت هذا الاسم فى أماكن مختلفة ، ودفع عمليات البيع من هذه الانواع المقتملة إلى الامام • ولكن هناك أسماء مغرية لانواع

مزج الشاى على لوحات الاعلانات ذات ترابطات بالاطفال وبالكلاب المدللة وببرج لندن • واذا كان من المرغوب فيه تجارة دائمة تنافس كل هذه الانواع فانه سيصبح من الحكمة أن يباع نوع ممتاز وسليم من الشاى وذو رائحة ممتازة تثبت جودته • ومن ثم تظهر المشكلة الكبرى عندما يوجد تغيير في الذوق العام ، وكذا عندما تدهور عمليات البيع لان رائحة الشاى المختارة لم تعد تلقى اعجابا ، فمن المحتمل أن يفكر المديرون أنه من الاسلم أن يتجهوا الى بيع النوع القديم من الشاى لعدد قليل من الزبائن ، أو ربما يستبدلون هذا النوع بنوع جديد تدريجيا ، واضعين فى حسابهم أن عدد ربات البيوت اللاتى يقلن ان « هذا ليس هو شاى باراماتا الاصلى » ربما يتعادل بعدد اللاتى يقلن « ان شاى باراماتا قد تحسن » • واذا لم يشنر الناس النوع القديم اطلاقا وفضلوا شراء النوع الجديد تحت اسم جديد فان ذلك يعنى انتهاء شركة شاى باراماتا تماما كما تلاشى الشركة التى تقوم بمحاولات فاشلة لتعبئة خمور جديدة فى زجاجات قديمة •

وتعتبر كل هذه الظروف مألوفة بالنسبة للسياسى الذى ينتمى لاحد الاحزاب كما هى مألوفة للمعلن • فلا يمثل مرشح الحزب فى بدء ظهوره بالنسبة لمعظم ناخبيه الا طردا مكتوبا عليه اسم حر أو محافظ • وللاسم ترابطات باللون والموسيقى وبعادة مكتسبة

وبشعور موروث بالمحبة التي تبقى مستقلة عن سياسة الحزب وتشوئها واذا لم يكن يحمل معه بطاقة الحزب - أى اذا لم يكن مرشحا « منتظما » كما يقول الامريكيون - فلن تنفصل هذه العادات وهذه المشاعر بالمحبة عنه فحسب ، بل انه سيجد صعوبة كبيرة فى تقديم نفسه للناخبين باعتباره كائنا مرموقا ، وسنجد أعدادا متباينة من الناخبين فى أوقات وفى أماكن مختلفة سينتخبونه باعتباره مرشح حزبهم « التقليدى » دون الرجوع الى بحث برنامجه رغم ضرورة وجود برنامج يمكن أن يتلاءم دائما مع سياسة الحزب فى رأى الآخرين وبالنسبة للجنة عرض أسماء الاشخاص لاجل ترشيحهم . ولكن على أى حال فطالما أنه مرشح الحزب فيجب أن يذكر أنه أنما يتحدث ويعمل نتيجة لهذه الصفة . ويساعد تحيز ناخبيه وآمالهم الحزبية على أن يصبح من السهل عليهم مشاركته فى التفكير والشعور وعندما يتحدث يربطه بمستمعيه قناع الحزب الذى يظهر أوضح وأقل تغيرا من وجهه كالقناع الذى يلبسه الممثلون على وجوههم ليساعدهم على أن يراهم المتفرجون ويسمعوهم فى المسارح اليونانية الصينية الواسعة الارجاء . واذا لم يستطع الاستمرار فى تمثيل دوره باخلاص فعليه أن يعتزل المسرح أو يقوم بالتمثيل تحت قناع حزب آخر .

وعلى زعماء الحزب مرة أخرى أن يتذكروا دائما ان الهيئة التى يهيمنون عليها تمثل كيانا يحتل مكانا فى ذاكرة الناخبين وانفعالاتهم ،

مستقلا عن آرائهم وفعالهم • ولا يعنى هذا ان زعماء الحزب لا يمكنهم أن يكونوا مخلصين بصفة كونهم أفرادا مستقلين فانهم لن يستطيعوا المحافظة على حياتهم السياسية الا اذا كانوا مستعدين دائما لفقدها • وقد يضطرون أحيانا للمجازفة حتى بوجود حزبهم نفسه • كان على سير روبرت بيل أن يقرر عندما تحول الى « التجارة الحسرة » فى عام ١٨٤٥ ما اذا كان عليه هو وأصدقاؤه أن يحطموا كيان حزب العمال بالانسحاب منه ، أو أن يغيروا من سياسته لكى لا يعترف بها حتى فى منطق العادة والترابط الناقص الادراك ، مثل هذا الكيان الذى وافق عليه الناس وقاموا بالعمل من أجله لاربعة أعوام خلت • وعلى أى حال كان بيل يقوم بشىء آخر أكثر جدية من التعبير عن رأيه الشخصى فى موضوع الساعة • وعلى العموم فانه اذا تم الاعتراف بذلك وقام ينادى بفرض ضريبة غلال من أجل حزبه فان قدرته الشخصية كسياسى ستنتهى كما ستنتهى أهمية حزبه تبعا لذلك •

واذا قدر الآن واستطاع فلكى أن يرصد الارض من عل على أن يكون متصفا بالقدرة على ملاحظة كل حقيقة عن جميع المخلوقات الانسانية فى وقت واحد فربما سأل كما يتساءل رؤساء تحرير الصحيفة وكما أكتب : ما تلك الاشتراكية التى تؤثر فى كثير من النفوس ؟ وربما أجاب بنفسه عن هذا السؤال بعبارة محددة يمكن ترجمتها ترجمة غير متقنة هى كحركة نحو تحقيق مساواة اجتماعية

على أوسع نطاق ، تعتمد فى قوتها على ثلاثة عوامل رئيسية : ازدياد نفوذ طبقات العمال السياسى ، ونمو التآلف الاجتماعى بين أعضاء الطبقات كلها ، والاعتقاد القائم على ازدياد نفوذ المنهج العلمى بأن من الممكن تحويل الاوضاع الاجتماعية عن طريق الاستنباط الشعورى والواقعى . وسيرى أناس يحاولون دفع هذه الحركة الى الامام بتقديم اقتراحات بشأن الضريبة والاجور والادارة التنظيمية أو المشتركة . وستبدو بعض هذه الاقتراحات مسايرة لحقائق الوجود الانسانى بينما صرف النظر عن بعضها ، اما لان أية أمة لا تستطيع أن تحاول تطبيقها أو لانه ثبت فشلها عند تطبيقها . ولكنه سيجد أيضا أن هذا التحديد للحركة الدائمة التغير ذات الجوانب المتعددة التى كونها التجريد المنبعث من الاقتراحات والرغبات الاجتماعية العديدة ليس وصفا « للاشتراكية » كما هى بالنسبة لعدد كبير من مؤيديها وان الشعور بالحاجة الى شىء ما قد يكون الفرد مغرما به ويكرس له عمله ، قد خلق لآلاف من العمال صورة مجسمة « للاشتراكية » على هيئة آلهة ذات جناحين وعينين ثاقبتين شاهرة السيف حتى تكون أمل العالم ونصيرة المعذبين . ولقد خلقت أيضا الحاجة الى آلة للتفكير يستطيع الفرد أن يستعملها بثقة تامة نوعا آخر من الاشتراكية ولكنها ليست فى هذه المرة على شكل صورة مجسمة بل ايمان جازم قاطع ظهر هذا الايمان فى انجلترا فى عام ١٨٨٤ وقد تعرض له وليام موريس فى كتاباته القيمة التى استمدها من محاضرات مستر

هندمان . فكان الالهام هو الذى حدا بعامل لم يحصل على قسط ضئيل من التعليم وكان ذلك منذ ثلاثة أعوام ليقول لى ودموع المهانة فى عينيه « كم كان غريبا أن تختفى الحقيقة القيمة من عند الناس الاذكياء والمثقفين فى العالم وتظهر لى وحدى » .

وعلى العموم فان الاشتراكية دائما تمثل كلمة أو رمزا يستعمل فى الحديث العام والكتابة الشائعة . ومنذ مائة عام منذ ذلك الوقت ربما تكون قد سارت فى الطريق الذى رسمته المذاهب التى ظهرت قبلها ـ كمذهب ليفيلر ومذهب سانت سيمون والشيوعية والعهد الاعظم ـ ومن المحتمل ألا تظهر الا فى تواريخ الحركة التى عانت من تحولات أخرى واتخذت لها أسماء جديدة ومن ناحية أخرى فربما تكون قد استمرتّ مثل « الجمهورية » فى فرنسا رمزا على العملات النقدية وعنوانا للتطورات العامة للحركة التى نجحت فى تثبيت دعائمها كحكومة بعد الفشل وفقدان الامل .

ولكن استعمال الكلمة فى الحديث العام ما هو الا نتيجة لاستخدامها فى أحاديث الافراد من الرجال والنساء ولا سيما هؤلاء الذين وافقوا على استخدامها كاسم للحزب . وسيجد كل فرد منهم ، طالما ان الحركة قائمة بالفعل ، أنه بينما لا يوجد مفر من استعمال الكلمة ، والا لن يكون للحركة كيان سياسى ، الا أن استعمالها سيثير سلسلة دائمة من المشاكل المعقدة فى الاستعمال . ويصبح كل

فرد يطبق الكلمة على نفسه أو على الآخرين بمعنى يختلف اختلافا بينا عن استعمالها العام مما يصبح من المؤكد أو من المحتمل أنه يعمل على خلق احساس زائف منهما حقيقة بأنه في حاجة الى صدق عادي. وعلى الرغم من ذلك بأنه توجد حالات تعتمد فيها النتائج العملية العظيمة على استمرار استعمال الكلمة على نطاق واسع بدلا من استعمالها على نطاق ضيق . ويستعمل الكاثوليكي « المحدث » التابع لكنيسة روما والذى درس تاريخ العقيدة الدينية تعبير « الكنيسة الكاثوليكية » الذى يعبر عن مجتمع مر بمراحل فكرية مختلفة فى الماضى ، والذى يعتمد فى حيويته على وجود مرونة معقولة للتغير فى المستقبل وهو لذلك يسمى نفسه كاثوليكيا . وأما بالنسبة للبابا وحاشيته من الناحية الاخرى ، فتعتبر الكنيسة معجزة لا تتغير مبنية على الهام ثابت . ويعتبر الاب تيريك عندما يقول انه « يعتقد فى الكنيسة الكاثوليكية على الرغم من أنه من الواضح أنه لا يعتقد فى المجريات الفعلية لمعظم الحقائق التى تكون الالهام الاصلى ، يعتبر هذا الاب بالنسبة لهم لا شىء أكثر من أنه محتال يسرق اسمهم لاستغلاله فى أغراضه الاحتيالية . ولا يستطيعون فهمه أكثر مما يستطيع المؤمنون بسلطة البابا المطلقة من بين الديموقراطيين الاشتراكيين الالمان أن يفهموا بيرنستين وأتباعه المحدثين . ومن ناحية أخرى كان على بيرنستين أن يختار مما اذا كان يتحتم عليه أن يحاول جعل الاستعمال العام لكلمة « اشتراكى » قائما أو ما اذا كان سيهجر استعمالها آخر

الامر ، لان اتجاهه الى استعمالها لا يثير الا شعورا سيئا واضطرابا في التفكير •

وأحيانا يمثل الرجل الذى يتمتع بقوة شخصية فريدة من نوعها وبقوة التعبير حزبا ـ أى كيانا سياسيا ـ فى نفسه •

وقد يتخذ لنفسه قناعا دائما ومعروفا ، كجون الامين ، و «الرجل العجوز الكبير » ، ولكن لا يمكن تحقيق ذلك • كقاعدة الا بواسطة هؤلاء الذين يعرفون طبيعة عملهم الرئيسى • فاذا وجد هدف عقلى لرجل سياسى من أجل مجموع الحاضرين فيجب أن يكون مبنيا على التماسك الفعلى بأفكار ثابتة أو أن يكون مبنيا على تطور بطىء مبسط ومناسب • ويشبه العقل المتغير ضعيف الانتباه ، اللوحة الحساسة التى تتأثر ببطء شديد وعلى من يرغب فى تصوير نفسه تصويرا دقيقا أن يقف أمامها لمدة طويلة فى نفس الوضع • وحتى العصفور الذى يطير من أمام اللوحة لا يترك أية علامة •

كتب جلادستون فى عام ١٨٦٨ يقول : يعتبر تغير الرأى بين هؤلاء الذين يتطلع الجمهور الى حكمهم كثيرا أو قليلا لتنفيذ حكمه ، شرا بالنسبة للبلاد ، على الرغم من أنه يعتبر شرا ضئيلا جدا بالنسبة لتمسكهم بموضوع يعلمون أنه خطأ • ولن يكون فى ذلك دائما موضعا للوم ، ولكن يجب أن يكون هناك دائما ملاحظة دقيقة وحاسمة ويكون هناك تحد دائم لها وتوضع تحت تجربتها • ويتجنب معظم

السياسيين هذا الاختبار بين فقدان القوة الناتج من التغيير العـــام فى الرأى وفقدان الشخصية الناتج من تمسك بالرأى الذى ترك خفية ، ولا يتم ذلك بواسطة التفكير بدقة فى كل تغيير فيما وصلوا اليه من نتائج فحسب ، ولكن عن طريق التأخير ، الذى غالبا ما يظهر بمظهر الجبن والسخف ، فى التعبير العام عن آرائهم فى جميع المسائـل باستثناء تلك المسائل الجارية التى تتطلب عملا سريعا . وتظل الكلمة المكتوبة أو المسرودة قائمة وتصبح جزءا من ذلك الكيان الخارجى الذى يقوم السياسى دائما ببنائه أو هدمه أو تحويله .

وتقوم نفس هذه الظروف بالتأثير على هيئات سياسية أخرى بجانب تأثيرها على الاحزاب ورجال السياسة . فاذا أريد لصحيفة أن تبقى كقوة سياسية فعليها أن تؤثر فى عقول الناس بتبنيهـا لرأى ثابت تتعرض له يوما بعد يوم . ولا يعمـــد الكتاب الى الكتابة فى الصحيفة من ناحية فن التحرير الصحفى فحسب بل الى ناحية الرغبة الفطرية لتفهمها ، وذلك فى نطاق طابع صحيفتهم

واذا انتقلت ملكية هذه الصحيفة لشخص آخر له مبادىء مختلفة أو يريد الدفاع عن مبادئه هذه فيجب ان تعلن عن نفسها صراحة انها أصبحت شيئا جديدا أو تعمد تدريجـيا وبخطوات تقوم بها فى مجال النقاش المعتدل الى توضيح أن هذا الاتجاه الجديد ما هو الا تنمية لازمة للقديم . ولذلك كان من الطبيعى

على الرأسمالى الذى يشترى صحيفة من أجل استغلال نفوذها القديم لتقوية حركة جديدة والدفاع عنها انما يقوم بشىء يخضع لحكم قيم اخلاقية أخرى غير تلك التى تطبق على عمليــة شراء آلة الطباعة والصحيفة وربما يحطم بعمله هذا شــيئا ظل يمثل كيانا ثابتا واضحا لآلاف من الناس البسطاء يعيشــون فى عالم غير واضح اكتسب شعورا صادقا بالمحبة والثقة كالشعور الذى يثيره الخطيب أو الحاكم •

الاستدلال غير العقلى فى السياسة

يمكن تقسيم الافتراض الذى يتصل اتصالا وثيقا بعاداتنا فى التفكير السياسى والاقتصادى ـ بأن الناس يلجأون دائما الى رأى عقلى للتعبير عن مصالحهم ـ الى قسمين منفصلين : القسم الأول وهو أن الناس يلجأون للاسترشاد بنوع ما من الاستدلال كأحسن وسيلة للوصول الى غاية مرسومة . والقسم الثانى وهو أن الاستدلالات كلها من نوع واحد وتثيرها عملية منسقة من «التفكير العقلى» .

وقد تعرضت فيما سبق للافتراض الأول وحاولنا بيان أنه جدير بالسياسى ان يعلم ان الناس لا يتجهون دائما الى الاستدلالات للوصول الى الوسائل والغايات . وذكرت أن الناس غالبا ما يعملون فى السياسة بدافع الغريزة والشعور القوى بالمحبة ، وأنه من الممكن توجيه هذا الشعور بالمحبة والمصلحة الى الكيان السياسى الذى يختلف عن هذه الحقائق الموجودة فى العالم الذى يحيطنا ، والتى يمكن أن نكتشفها عن طريق الملاحظة والتحليل .

أما فى هذا الفصل فانى أقترح أن نتعرض للافتراض الثانى ونبحث مدى الحقيقة فى اتجاه الناس عندما يكونون استدلالات

كنتيجة لاعمالهم السياسية فانهم يكونونها دائما عن طريق عملية عقليـــة •

وأول صعوبة سيصادفها الفرد فى مثل هذا البحث هو أنــه من الصعب الوصول الى تحديد واضح للتفكير العقلى • وسيجد أى فرد يلاحظ نشاط ذهنه انه ليس من الســهل على الاطلاق تتبع الاختلافات الظاهرة بين الحالات العقلية المختلفة التى تظهر بجلاء عند عرضها فى كتب علم النفس • ويشبه عقــل الانسان القيثارة التى تعزف أوتارها فى وقت واحد حتى أصبح الانفعال والحافز والاستدلال وبخاصة ما اتصل منه بالتفكير العقـــلى تمثل غالبا مظاهر موحدة وتحدث فى آن واحد لتجربة عقلية واحدة •

وهذا طبيعى بصفة خاصة فى لحظات العمل وفى لحظــات الاثارة • ولكننا غالبا ما سنجد من الصعب عندما نكون فى حالة تفكير سلبية أن نحدد ما اذا كانت حالات الشعور المتتابعة يمكن وصفها وصفا دقيقا بأنها انفعالات أو استدلالات • وسيكون من الصعب غالبا عندما يتبع تفكيرنا بوضوح هـــذا النــوع من الاستدلال أن تقول ان هناك غرضا محددا يوجـــه خطواته لاكتشاف الحقيقة حتى اذا سلمنا بأن نسمى ذلك تفكيرا عقليا •

ونحن لا نقوم دائما بترسم الاستدلال أو تكوين معتقدات من أى نوع حتى عندما نقوم بعملية تفكير مضنية من أجــل غرض معين • فنحن نتجه الى ترديد الحروف الأبجدية فى ذهننا

عندما ننسى اسما ونتريث قليلا عند كل حرف لاحتمال معرفــة الاسم الذى نريده • وعندما نستقبل أخبارا غير سارة نعمــل جاهدين للتحقق منها عن طريق تهيئة الفرصة لايجـاد ترابطات عقلية متتابعة بنفسها وننتظر حتى نعلم أخيرا ماذا تعنى الاخبار بالنسبة لنا • ويتأمل الشاعر الصور التى تظهر فى مخيلته ويرتبها فى ذهنه لا من أجل اكتشاف الحقيقة ولكن من أجل الوصول الى غاية فنية دراماتيكية • فمثلا تعتبر العلاقة بين الصور المتتابعة فى حديث بروسبيرو الشهير فى مسرحية العاصفة ، وليدة الخيال وليست وليدة الاستدلال وجدت عن طريق التخيل الابتكارى وفى الواقع تتبع معظم الاستدلالات الحقيقية التى نقوم بهــا فى أى يوم ، هذا النوع التافه من التفكير الذى يغاير ذلك التفــكير الذى يلازم بعض الانواع السامية التى تقــــوم على ترابط الاستدلال غــير العقلى • وتتضح كـثيرا من استدلالاتنا فى مثل الحوافز الشبيهة بالغريزة التى تلازمها وتعمــل على تعديلهــا عندما لا نقوم بأى مجهود شعورى بالمرة • فمثل هذا العمــل الغريزى المحض الذى يتمثل فى قفزنا الى الخلف لتجنب حجر يسقط فان الدافع الى القفز والاستدلال بأن هناك خطرا انمـا يعبران عن شيئين لعملية آلية لا شعورية • ونستطيع أن نتحدث عن الاستدلال الفطرى مثلما نتكلم عن الدافع الغريزى فنحن نقوم مثلا عن طريق عملية عقلية فطرية باستدلالات بالنسبة للمسافة

بين الأشياء والوجود الفعلى لهذه الاشياء بواسطة حركات أعصاب العين فى تحديد البعد البؤرى من ناحية ، وعن طريق التباين بين الصور على شبكة العين من ناحية أخرى . ونحن نقوم بهذه العملية التى استطعنا عن طريقها أن نصل الى هذه الاستدلالات دون أن نشعر بذلك . وحتى عندما نعلم أن الصورة المزدوجة تظهر فى جهاز الستيروسكوب مسطحة أو أن الساحر قد وضع لوحين متقابلين من المرايا تحت منضدته ، فاننا لا نستطيع الا أن نقول ان الصورة «تظهر» مجسمة أو «يخيل» الينا أننا ننظر تماما تحت المنضدة .

وما من شك فى أن عملية الاستدلال بأكملها سواء أكانت عقلية أو غير عقلية تنبع من الحقيقة التى لا جدال فيها وهى أنه ربما تؤدى حالة ذهنية واحدة الى ظهور حالة أخرى اما لأن الحالتين قد تلازمتا فى تاريخ الفرد أو لأن الترابط بين الحالتين قد ثبتت فائدته فى تاريخ الجنس . واذا سار رجل وكلبه معا فى الشارع فانهما يتجهان الى اليمين أو الى الشمال ويترددان فى عبور الطريق أو يسرعان فى عبوره ويدركان جرس الدراجة وصياح سائق العربة باستعمال نفس العملية فى الاستدلال لتوجيه نفس مجموعة الحوافز . وستتبع استدلالاتهما فى أغلب الأحيان دون بذل أى مجهود على الرغم من أننا سنراهما أحيانا يترثان حتى يستقرا على شىء باتخاذ رأى فى قرارة نفسيهما .

ويدخل الرجل فى نطاق التفكير العقلى المحض عندما يتحتم عليه اتخاذ قرار يؤثر فى أهداف حياته البعيدة . وفى ذلـــك النطاق يستطيع أن يستخدم الالفاظ ويصبح مدركا فى كثير أو قليــل بطرقه المنطقية الخاصة به . وعند هذا الحد لا يستطيع الكلب أن يحذو حذوه .

ولكن يتبلور ضعف الاستدلال الذى يتم بترابط آلى كآلة للتفكير فى احدى الفكرتين المتلازمتين التى قد تعمل على ظهور الفكرة الأخرى دون الاشارة الى ارتباطهما المنطقى . ويعمــل التأثير على ظهور السبب بحرية تماما كما يعمل الســـبب على ظهور التأثير . ويقوم المريض الخاضع تحت تأثـــير غيبوبة باستدلالات فى سرعة ومقدرة فائقة ، ولكنه يستطيع أن يتتبع بسهولة الشيء الحادث فى الماضى كما يتتبعه فى المستقبل . واذا وضعت خنجرا فى يده فانه سيعتقد أنه قد ارتكب جريمة قتل . كما ان منظر الطبق الفارغ يوحى اليه بأنه قد تناول الطعــام . واذا ترك لنفسه فانه من المحتمل أن يقوم بأعمال روتينية الى أبعد حد . ولكن يستطيع أى فرد يفهم حالته أن يجعله يأتى بتصرفات شـــــاذة .

ونحن عندما نحلم نقوم باستدلالات غير معقولـــة بنفس الطريقة عن طريق الترابط . والشعور بالضيق نتيجة لوعكــة

خفيفة يولد الاعتقاد بأننا على وشك التحدث الى جمهور كبير من المستمعين وقد فقدنا مذكراتنا ، أو بأننا نمشى على طـول الشاطىء بقميص خفيف . وحتى عندما يكون الناس متيقظين فان تلك الأجزاء من العقل التى لا يلقون اليها أى اهتمام فى لحظة ما تكون على استعداد للقيام باستدلالات لا أصل لها . ويستطيع الساحر الذى ينجح فى استبقاء انتباه المتفرجـين مركزا على ملاحظة ما يفعله بيده اليمنى ان يجعلهم يصدرون أحكاما غـير عقلية عندما يحرك يده اليسرى . وأحيانا يشعر الناس الذيـن يتمتعون بشعور دينى قوى بصوت يخفق فى آذانهم نتيجة لقوة دورانهم المتزايدة . ويستطيع عازف الأرغون أن يثـير نفس الاحساس بفتح الانبـوبة التى يبلغ طولها ٣٢ قـدما وبالتالى يستطيع أن يثير من هذه الأصوات المتجمعة اعتقادا غامضا وغير مدرك ادراكا كاملا بأنها تبعث احساسا دينيا .

وتتلخص الأهمية السياسية لكل هذا فى الحقيقة التى لاشك فيها وهى أن معظم الآراء السياسية لكثير من الناس ليست وليدة التفكير الذى خضع لاختبار التجربة ، ولكنها وليـدة للاستدلال اللاشعورى أو غير المدرك ادراكا كامـلا والذى تثبته العادة . وتظهر العادة سلطانها فى السياسة فى تكوين معالم الفكرة بوجه خاص . وتعتبر العادة فى أوجه النشاط الأخرى

متعلقة بمسألة التكييف العضلى الى حد كبير . ولكن الحركات البدنية فى السياسة لا تحدث الا نادرا حتى أنه لا يمكن أن تؤدى الى تكوين أى شىء كعادة مثلا . ويستطيع الفرد أن يرى ناخبا محترما تتسم آراؤه السياسية بأنها قد صقلت وهذبت بفضل العادات العقلية التى اكتسبها طوال ٣٠ عاما ، ويستهتر بعملية وضع العلامة على بطاقة الانتخاب وطيها كالطفل الذى يعبث بأول كراسة يستعملها .

ويخيل لبعض الناس بالرغم من ذلك أنهم يقدرون معظم آرائهم التى لا يرتبط أصلها بالتعقل الفعلى . وعندما يقول مستر بارى بوى هاجارد «ان من رأيى أن ديوان بيرنز ذو اتجاه اباحى وهذا رغم انى لم أقرأ أشعاره بنفسى ولكن هذا هو رأيى» ــ عندما يقول ذلك فانه انما يقوم بمقارنة النتيجة العقلية وحدها التى نبعت من قراءة أشعار بيرنز بالرأى الذى كونه عنها ووجده كامل التكوين فى عقله والذى يعتبر مقدسا ومعبرا تعبيرا صادقا عن رأيه .

وهكذا يعتبر الرأى الذى يتكون لا شعوريا هو أفضل موجه لنا فى شئون حياتنا اليومية . ولا يخرج غالبا العالم المادى عن طريقه ليخدعنا ، كما أن آراءنا النهائية ما هى الا نتيجة لمئات عديدة من الاستدلالات المستقلة التى يبقى منها الاستدلال ذو الانطباع القوى .

ولكن ذاكرتنا فى المسائل الشخصية قابلة للوهن ، وغالبا ما نستطيع تذكر الترابط بين فكرتين بينما ننسى السبب الذى أدى الى وجود هذا الترابط . ونحن نكتشف فى أذهاننا شعورا غامضا بأن «سمبسون» يشرب الخمر ولكننا لا نستطيع ان نسترجع ما اذا كان لدينا أى سبب يدعونا الى الاعتقاد بذلك ، أو ما اذا كان أحد الاشخاص قد أخبرنا فى يوم ما بأن ابن عم «سمبسون» قد اخترع دواء لعلاج شرب الخمر . ومن المحتمل، عندما تتذكر العلاقة فى جملة خبرته . وعندما لا يمكن ملاحظة أصلها ظاهريا ، كأن نجد لدينا اعتقادا واضحا جازما بما لا نستطيع أن نقول عنه شيئا بأى حال من الأحوال عند الفحص والدراسة الدقيقة . وعندما نسمع مثلا عن أسقف من أوائل العصر الفكتورى يسمى «سوابى سام» عدة مرات متتالية فاننا نستطيع أن نكون رأيا ثابتا عن شخصيته دون الحاجة الى دليل آخر .

وفى الظروف العادية لا تؤدى هذه الحقيقة الى ضرر بالغ ، لأنه من غير المحتمل أن «يتعلق» الفرد باسم اذا لم يعتقد كثير من الناس تماما بأنه مناسب ، واذا لم يستعمل فمن المحتمل ألا نسمع به أكثر من مرة أو مرتين . ولكن غالبا ما يكون من الأوفق لبعض الناس ، فى السياسة ، كما فى مهنة السحر ، أن يقوموا بمتاعب كثيرة من أجل ايجاد مثل هذا التأثير دون انتظار الفكرة

لكى تقحم نفسها عن طريق التكرار الذى يتصادف حدوثه • وقد قلت سابقا ان الاحزاب السياسية تحاول أن يتفهم بعضهـا البعض الآخر بأسماء وضيعة تنبع من ترتيب منظم يقوم بوضعه العقل• فاذا ظهرت كلمة «واستريل» مثلا فى أعمدة «الديلى ميل» فى يوم ما كلقب للتقدميين أثناء انتخاب المجلس البلدى ، فان المسافر من بوتنى الى بانك سيراها أثناء قراءة الصحيفة فى الأمنيبوس مائة مرة على الأقل دون أن يدركها ادراكا كاملا ، وسيكون قد كون ترابطا عقليا غير ثابت بدرجة كبيرة فى نهاية رحلته • واذا فكر قليلا فسوف يتبين له أنه لا يوجد الا شخص واحد قد قرر مرة استعمال الكلمة • ولكنه لا يفكر ، وسيظل التأثير عليه كما هو ، كما لو كان مائة شخص قد استعملوها مستقلين عن بعضهم • وقد تطورت أعمدة الصحف التى كانت قصيرة أصلا ، وتتركز فيها الأفكار دون اعتبار للمكان ــ تطورت بطريقة تهدد بتحويـــل شوارعنا (كصفحات الاعلان فى المجلات الأمريكية) الى معمل نفسانى لانتاج لاشعورى لترابطات دائمة • والغرض من نشر العناوين مثل «اهانة المانية أخرى» و «جريمـــة كيرهاردى» و«استسلام بلفور» هو التأثير فى العقل الذى يتأثر بالفعـــل بافكار كانت موجودة أصلا •

وتنطبق نفس القاعدة مرة أخرى على كل هذا كما يحدث فى

تكوين الحافز . فالاشياء القريبة من الاحساس والقريبة من ماضينا المتطور القديم تؤدى الى تكوين استدلال اكثر استعدادا وكذا حافز اضطرارى . وعندما يبتسم المرشح فى الانتخاب عند بدء ظهوره لمرشحيه كما لو كان صديقا لهم منذ أمد بعيد ، فانه لا يهدف كما قلت فى فصل سابق الى التأثير على غريزة الشعور بالمحبة الانسانية القديمة السريعة التأثر فحسب ، بل انه يهدف فى نفس الوقت الى دفعهم لاعتقاد مزعزع بأنه صديق لهم منذ أمد طويل . وربما يقوم موكله بنفس الشىء طالما أنه لا يقول شيئا محددا يؤدى الى اثارة الانتباه لاتجاه عقلى ونقدى . ويستطيع الفرد أن يذهب الى أبعد من ذلك فيردد الهتاف فى نهاية الاجتماع بحياة جونز القدير .

وقد اقتبس مستر ج. ك. شيسترتون منذ بضعة أعوام جزءا من مقالة نشرت فى احدى المجلات عن الانتخابات الأمريكية يقول : «ان الرأى السليم نوعا ما يؤثر فى نفوس جمهور من العمال الامريكيين أكثر مما تؤثر فيه المناقشة ذات الاسلوب العالى . ويكسب المتحدث مئات من الأصوات فى صالحه فى انتخاب الرئاسة الأخير بالاعلان عن مبادئه الرئيسية » .

ولا يتمثل عرض الرأى الصائب المعتدل كما يعتقد مستر شيسترتون فى تقديم المناقشة فى اطار منطقى ولكن فى معرفة

الخطيب للطريقة التى يصبغ فيها الاستدلال غير العقلى بالقوة وقدرته على الاستفادة من هذه المعرفة .

وعندما يتكون فى وقت ما ترابط حى فانه يستقر فى تجاربنا العقلية ، وربما يخضع بعد ذلك للتطورات والتغيرات التى ليس للقياس المنطقى الا تأثير ضئيل عليها . وقد علمت عندما قامت ثورة الشعب الانجليزى ضد الاقتراح بتطبيق قانون عقد العمل الصينى فى جنوب أفريقية أن شخصية هامة قالت انه «لا يسير على نظام التصويت» . ولكن الثورة قامت وكانت مبنية على حجة منطقية وهى أن القانون قد أوجد ظروفا تتسم بنوع قاس من العبودية تفرض على سكان آسيا الذين يتمتعون بذكاء غير عادى وعلى العموم فلابد لأى فرد لمس بنفسه كثيرا من المعارك السياسية فى شتاء عام ١٩٠٥ - ١٩٠٦ أن يكون قد لاحظ صور الصينيين على لوحات الاعلانات تثير فى نفوس كثير من الناخبين شعورا سريعا بالكراهية تجاه الجنس المغولى . وقد تحول هذا الشعور بالكراهية تجاه حزب المحافظين . كما أثارت صورة الصينى التى ظهرت فجأة على شاشة الفانوس السحرى متفرجين من طبقة العمال فى نهاية فترة الانتخاب العام فى عام ١٩٠٦ موجة مفاجئة من السخط والاستياء ضد مستر بلفور .

وعلى العموم اتجهت ذكرى الوجوه الصينية فى الاعلانات

الى تكييف نفسها فى أذهان المحافظين مع الاحرار الذين استعملوها تدريجيا بعد الانتخاب . وقد رشحت فى الانتخاب العام فى دائرة انتخابية حيث ظهر عدد كبير من هذه الاعلانات الكبيرة فى صفى ، كما وقع علينا اعتداءات كثيرة . ومثلت فى عام آخر مجلس بلدية لندن فى نفس الدائرة . وقد لاحظت قبل انتهاء عملية الانتخاب بساعة ، رغم اجهادى الظاهر طوال يوم الانتخاب ، رجلا ذا وجه أبيض كبير يطل من شباك غرفة اللجنة ويصيح بصوت خشن وعال : «اين جديلة شعرك التى نزعت ؟ اننا نزعناها من رأسك فى المرة السابقة : أما الآن فاننا سنطوق بها عنقك الدامى ولنخنقك بها . »

وظهرت آلاف من الصور الكبيرة فى فبراير عام ١٩٠٧ اثناء انتخاب المجلس البلدى على لوحات الاعلانات فى لندن كان الغرض منها هو خلق شعور بأن الاعضاء التقدميين فى المجلس انما يعيشون على الغش والخداع . واذا نشر تصريح من هذا القبيل فان ذلك سيمهد الطريق لاثارة التفكير العقلى الناقد ويحدث نقاش وجدال قد يؤديان الى اثارة الموضوع فى المحاكم. ولكن الاتجاه كان من أجل عملية الاستدلال اللاشعورى . ويتكون الاعلان الكبير من صوت رجل المفروض أنه يمثل الحزب التقدمى رافعا اصبعه ويقول بطريقة غير واضحة للغاية

لتجنب رفع دعوى ضده بجريمة القذف : «انها تقودك التى نريد أن نستولى عليها • » ويعتمد تأثيرها على اكتشافهـا أن معظم الناس يحكمون على صدق الاتهام بالغش والخداع عن طريق سلسلة من الاستدلالات اللاشعورية السريعة عند ظهور الشخص المتهم • ويمثل الشخص المشار اليه اذا حكم عليـه ، بشـكل قبعته ، ونوع سلسلة ساعته وخاتمه وشكل أسنانه وهى فى وضع مهمل واحمرار أنفه ، أى رسم صور واضحة لمحتال محترف • وأعتقد أن فنانا أمريكيا قد قام برسمه ، كما يتسم وجهه وملابسه بالطابع الأمريكى الغامض الذى يعبر شكله فى منطقة الترابـط اللاشعورى لمعظم الناظرين اليه بفـكرة « تاما نى هول » • كان هذا الاعلان الكبير ناجحا الى أقصى حد • ولكن يخيل الآن بعد انتهاء الانتخاب بأنه يظل فى طابعه الذى يتميز بالتغير غير العقلى• ويلاحظ الفرد أن احدى الصحف التقدمية المسائية تستعمـل نسخة مصغرة منها عندما ترغب فى الاشارة الى أن المعتدلين قد تأثروا بدوافع مادية غير شريفة • ووجدت بنفسى أنها تميل الى ارتباطها فى ذهنى بفكرة السياسى النشيط الذى قام بالتأثير على شركات السكك الحديدية وغيرها للتبرع من أجلهـا والذى يحتمل ، بقدر ما أعلم ، أن يثير بمظهره الشخصى التقاليد الموروثة للرجل الانجليزى المهذب •

وقد أشار الكتاب فى موضوع سيكولوجية الجماهير الى تأثير الانفعال والارقام فى استبدال الاستدلال غـــير العقلى باستدلال عقلى . وعلى العموم فان أى سبب يكون من شأنه الحيلولة دون ملاحظة الانسان لعملياته العقلية ملاحظة كاملة ؛ قد يؤدى الى ظاهرة الاستدلال غير العقلى بدرجة كبيرة . وقد لاحظت فى احدى اللجان الفرعية الصغيرة الطريقة التى يستطيع بها كل من شخصين أعرفهما يقومان بعمل اللجنة بمهارة تامـــة السيطرة على زملائه . كانت ناجحة نجاحا تاما فى نهاية ا. ـى فترات ما بعد الظهر عندما كان الأعضاء مجهدين ومتعبـــين الى حد ما من متابعة شخص يتحدث بسرعة وباسهاب ممل . واذا قام الخطيب عند هذا الحد بزيادة سرعة مجرى حديثه قليلا واكـــد قليلا الافتراض بأنه مفهوم الى أقصى حد ، فانه يستطيع أن يؤثر على بعض زملائه على الاقل فى شبه غيبوبة يرحبون فيها بالوصول الى الاقتراح الذى يشير الى أن أحسن وسيلة لضمان بقـــاء المدارس الخاصة مثلا هو زيادة عدد المدارس العامة زيادة كبيرة وسريعة .

وأحيانا لا تمثل مثل هذه الاستدلالات غـــير العقلية الا شطحات لتفكيرنا السياسى وأن القرارات الهامة فى السياســة سواء أكانت صائبة أم لم تكن ما هى الا نتيجة لقياس منطقى شعورى . وأحيانا يواجه الكتاب السياسيون الأمريكيون الذين

ينتمون للنوع العقلى الوراثى مثلا بأن المندوبين فى اجتمـاعات الحزب القومى ـ عندما يقومون باختيار المرشحين فى انتخابات الرئاسة واعلان برامجهم فى تلك الانتخابات لن يكونوا فى حالة يستطيعون معها اختيار القوة المنطقية لعملياتهم العقلية ويعتقد مثل هؤلاء الكتاب بان الاختيار الفعلى للرئيس لا يتم عن طريق اجتماعات صاخبة ولكن بواسطة ناخبين يأتون مباشرة من مناطق لا يسودها الاضطراب فى بلاد أمريكا .

ويوضح الرئيس جارفيلد هذا الرأى فى صفحة يشار اليها دائما فى خطبته التى ألقاها فى اجتماع رئاسة الجمهورية فى عام ١٨٨٠ فيقول :

لقد رأيت البحر هائجا ، يقذف برذاذه فى ثورة من الغضب وقد حرك جبروته مشاعر أقل الناس احساسا . ولكنى أعتقـد أن قياس الارتفاعات والأعماق لا يكون فى وجود أمواج مرتفعة. وانما عند مستوى سطح البحر الساكن لن يتم هنـــا فى هذا الاجتماع البارز حيث يجتمع ١٥ ألف رجل وامرأة تقرير مصير الجمهورية للاعوام الاربعة القادمة .. ولكنه سيتم بجانب أربعة ملايين مدفأة فى أنحاء الجمهورية حث يجلس الناخبون المفكرون وحولهم زوجاتهم وأطفالهم تراودهم الأفكار الهادئة التى يسودها حب الوطن والبلاد والتاريخ الماضى وآمال المستقبل ومعرفـة

الرجال العظام الذين تعلقت أفئدتهم بحب وطننا وقاموا بخدمته فى الأيام الماضية . ان الله يعد قراره الذى سيحدد حكمة عملنا فى هذه الليلة .

ولكن الوحى المقدس سواء أكان فى أمريكا أم فى بريطانيا يكتشف دائما أنه ليس الا رب بيت مجهد يقرأ العناوين الكبيرة والفقرات الشخصية التى تنشرها صحيفة حزبه . ويكون دون وعى كامل عادات عقلية لشك وضيع ولكبرياء قومى . وأحيانا يشعر الفرد اثناء الانتخاب بأنه كلما كانت الأمور عميقة فى السياسة كلما كان لها ، عموما ، فى الاجتماعات الكبيرة حيث تظهر الأفكار الضخمة بكامل قوتها الانفعالية ، فرصة حسنة فى معرفتها .

ومن المحتمل ألا يعتنق الناخب فى أثناء قراءة صحيفة آراء سياسية فحسب ، بل أيضا كل ما دار فى المناقشة السياسية عن طريق التصور ، ويجعلها عادة عن طريق التكرار ، وليس من الضرورى أن يشعر بالحاجة الى مقارنتها بما جرى فى مناقشة سابقة فى ذهنه . وسيعمد المحامى او الطبيب الى الدفاع على أسس عامة ، عن الحركة النقابية الخاصة بمهنته ، بينما يوافق كلية على مهاجمتها عند معاملته كمساهم فى السكك الحديدية أو دافع الضريبة ، وأحيانا يمكن التأثير على نفوس المستمعين

بالترحيب بالتعاليم الدينية الطائفية عن طريق «الحقوق العاطفية» وبمعارضتها عن طريق «الحرية الدينية» . ويقول أشد الملاحظين السياسيين الذين أعرفهم يتوقدون ذكاء مشيرا الى الهجوم المنظم الذى شنته احدى الصحف : «ان لكل مناقشة استخدمت فى الهجوم
شنته احدى الصحف : « ان لكل مناقشة استخدمت فى الهجوم
وفى الدفاع ، بقدر ما أستطيع ان أصرح به ، تأثيرها المنفصل والمستقل . ومن الصعب تقابلهم حتى ولو حدث انهم اشتركوا فى نفس التفكير . » ولذلك أصبح من الضرورى من الناحية التكتيكية المحضة الاهتمام كثيرا بقاعدة لورد ليندهيرست التى تقول «لا تدافع عن نفسك أمام مجتمع الا اذا أردت أن ترد الهجوم ، فان المستمعين سينسون الاتهام السابق فى غمرة السرور الذى يضفيه الهجوم » .

مادة التفكير السـياسى العقلى

ان الانسان لحسن الحظ لا يعتمـــد فى تفكيره السياسى عـلى تلك الاشكال الخاصة بالاستدلال عن طريق الترابط السريع الذى يأتى اليه بسهولة والذى يشترك فيه مع سلالات الحيوانات الراقية . ويرجع الفضل فى حدوث هذا التقدم الشامل فى حضارة الانسان الى اختراع وسائل من التفكير تساعدنا فى تفسير عمل الطبيعة والتنبؤ به بنجاح ، أكثر مما اذا اقتصرنا على اتباع الثبات فى أقل درجة عند قيامنا بتشغيل عقولنا .

وعلى العموم فان هذه الوسائل عند تطبيقها فى السياسة ستظل تمثل فنا صعبا وغير ثابت أكثر من تمثيلها لعلم يحصل على تأثيره بأتفاق آلى .

وعندما قام كبار المفكرين فى اليونان بوضع القواعد للتفكير العقلى الراسخ كانوا يحسون فعلا بالحاجة الى السياسة ولا سيما فى أذهانهم ولما كان من الضرورى اطلاق سراح المسجونين فى كهف أفلاطون الخيالى بواسطة الفلسفة الصادقة كان عليهم أن يقوموا بتـــكريس أنفسهم لخدمة الدولة . وكان يتمثل نصرهم الاول فى السيطرة على العاطفة بواسطة العقل فى نطاق السياسة . ولكن لو اســتطاع أفلاطون زيارتنا الآن فانه سيعلم أنه بينما يسير صانعو النظارات

عندنا للوصول الى نتائج سليمة بالقيام بعمليات دقيقة وموثوق بها ، فان المشتغلين بالسياسة منا ما زالوا يثقون بالقواعد العامة المبنية على التجربة والاختبار والمهارة الشخصية كما كان يفعل صانعو النظارات فى أثينا القديمة . وسوف يسألنا لماذا أثبت التفكير العقلى الراسخ أنه أكثر صلابة فى السياسة عنه فى العلوم الطبيعية ؟

ومن المحتمل أن توجد اجابتنا الاولى فى طبيعة المادة التى لابد للتفكير العقلى من معالجتها . وان الكون الظاهر أمام تفكيرنا هو نفس الكون الذى يظهر أمام احساساتنا حوافزنا ممثلا فى مجرى لا نهائى من المشاعر والذكريات التى يختلف بعضها عن بعض فاننا نقف أمامها عاجزين وغير قادرين على العمل أو التفكير اذا لم نقم بعملية الاختيار والادراك والتبسيط ، ولذلك فان على الانسان أن يقوم بخلق الكيان الذى سيصبح مادة تفكيره العقلى مثلما يقوم بخلق كيان يكون غرضا لانفعالاته وحافزا لاستدلالاته الفطرية .

ويتطلب التفكير العقلى الدقيق مقارنة دقيقة ، وقد استطاع أجدادنا اجراء مقارنة بين بعض أشياء قليلة فى الصحراء أو فى الغابة بدقة . وكان المعتقد أن الاجرام السماوية كانت المواد الاولى لتفكير عقلى دقيق وشعورى لانها تبعد عنا كثيرا ولا يمكن معرفة شىء عنها غير وضعها وحركتها ويمكن مقارنة وضعها وحركتها من ليلة الى ليلة بدقة .

وبنفس الطريقة ظهر أساس العلوم الارضية من اكتشافين : الاول وهو أنه يمكن استخلاص صفات فريدة كالموضع والحركة فى جميع الاشياء مهما كانت متباينة وذلك من صفات أخـــرى لتلك الاشـياء ومقارنتها بدقة . والثانى وهو أنه من الممكن ايجاد مطابقات فعلية لغرض المقارنة بطريقة مصطنعة ، أى ايجاد أشياء متشابهة من أشيـاء حتى يمكن اجراء استدلالات راسخة فى ظروف متشابهة . فمثلا ظهر علم المساحة فى الوجود لخدمة الانسان عندما تحقق شعوريا أن جميع وحدات اليابس والماء متشابهة تماما طالما أنها مسطحات شاملة . ومن ناحية اخرى لم يصبح فن التعدين علما الا عندما استطاع الناس بالفعـــل أن يأخـــذوا قطعتين من صخر النحاس مختلفتين عن بعضهما فى الشكل والحجم وفى التكوين الكيمائى ويستخلصوا منهما قطعتين من معدن النحاس متشابهتين فى كل شىء الى أبعد حد ويمكن الوصول الى نفس النتائج اذا استخدمتا بطريقة واحدة .

ولا يستطيع السياسى أن يكون له هذه القدرة الثانية على مادته . فهو لا يستطيع أن يخلق مطابقة صناعية فى الانسان وهو لا يستطيع بعد عشرين جيلا من التعليم أو التربية أن يجعل من شخصين يشبه بعضهما البعض الى أقصى حدما يمكنه من التنبؤ بشىء من التأكيد بأنهما لن يختلفا فى السلوك فى ظروف متشابهة .

والى أى مدى يتمتع بالقدرة الاولى ؟ الى أى مدى يستطيع أن يستخلص من حقائق طبيعة الانسان صفات مقارنة فى الاشخاص الى درجة كبيرة حتى تسمح بتفكير عقلى راسخ .

كتب جون أدامز ، وسفير أمريكا فى انجلترا وصار فيما بعد رئيس الولايات المتحدة لاحد أصدقائهما فى ٥ ابريل عام ١٧٨٨ وكان ذلك قبل الاستيلاء على الباستيل بعام يصفان له « موضوعا يتعلق بالحكم فى أوربا . وعند وصفهما للناس يسألان «هل الحكم علم أو لا؟» و « هل هناك أسس يبنى عليها؟ وما هى غاياته ؟ واذا لم يكن هناك حكم أو مقياس فان كل شىء سيحدث حتما صدفة وعرضا . واذا كان هناك مقياس فما هو ؟ » .

وباستعراض تاريخ الفكر السياسى نجد أن الناس يعتقدون أنهم قد وجدوا هذا « المقياس » - أى تلك الحقيقة عن الانسان التى يجب أن تحمل نفس العلاقة بالنسبة للسياسة، فتتعلق كل الاشياء التى يمكن وزنها بالطبيعيات وجميع الاشياء التى يمكن قياسها بعلم المساحة .

ولقد بحث عنها بعض المفكرين الكبار فى الماضى فى الاغراض النهائية من وجود الانسان . وما من شك فى أن كل انسان يختلف عن الآخر ، ولكن يخيل ان كل هذه الاختلافات مرتبطة بنوع معين من الانسانية الكاملة التى يستطيع كل الناس أن يفهموه ويدركوه على الرغم من أن قليلا منهم استطاعوا أن يحققوا جزءا صغيرا منه دون أن يستطيع تحقيقها تحقيقا كاملا .

ويتساءل أفلاطون « ألم يكن هذا النوع هو المثال ـ الفكرة ـ الخاصة بالانسان التى كونها الخالق ووضعها فى مكان سماوى ؟ واذا كان الامر كذلك فان الناس سيدركون علم السياسة الراسخ وسيصلون الى معرفة هذا المثال عندما يقومون بتفكير عقلى دقيق وتأمل عميق • ومن ثم فان جميع الامور الزائلة والمتغيرة التى تتعلق بالادارة ستظهر من ناحية علاقتها بأغراض الخالق الابدية » الثابتة •

أو أن هناك اعتقادا بأن علاقة الانسان بغرض الخالق لا تتمثل فى تلك التى بين المثال والصورة ولكن فى تلك التى بين عقل المشرع المتمثل فى القانون الصادر وحالة الفرد التى يطبق عليها القانون • ويعتقد « لوك » أننا نستطيع أن ندرس قانون الخالق ونحيط به عن طريق التأمل فى الحقائق الاخلاقية فى العالم • ويمدنا هذا القانون ببعض الحقوق التى نستطيع أن ندافع عنها فى محكمة العدل السماوية والتى يمكن أن نستخلص منها علما سياسيا راسخا • ونحن نعلم حقوقنا بنفس اليقين الذى نعلم به هذا القانون •

كتب لوك يقول : «ان هؤلاء الناس جميعا الذين يمثلون مخلوقات صانع قدير يتصف بالعقل والحكمة البالغة والذين يتبعون سيدا واحدا قد أرسلوا الى هذا العالم بأمره ولحكمة يعلمها هو ، كما أنهم يعتبرون ملكا له ولغرض ما فى نفسه لم يتم خلقهم طبقا لهوى كل فرد • ولا يمكن الاعتقاد بوجود مثل هذا الخضوع بينهم بعد أن وهبوا

ملكات متشابهة ويشتركون جميعا فى ظروف طبيعية واحدة قد تدفعنا لتحطيم الآخرين كما لو كنا خلقنا لمنفعة بعضنا البعض كما خلقت المخلوقات ذات السلالات الوضيعة لمنفعتنا .

وعندما بحث زعماء الثورة الامريكية عن الحقيقة فى جدالهم ضد جورج الثالث وجدوا أن الناس « قد وهبهم خالقهم حقوقا ثابتة لا تتغير » . وقد كتب روسو وزملاؤه من الفرنسيين هذه الحقوق فى وثيقة اجتماعية . وتشبه هذه الحقوق الانسـانية المدونة فى الوثيقة الفيل الجاثم على ظهر السلحفـاة ، على الرغـم من أن الوثيقة كالسلحفاة لا تقف على شىء اطلاقا .

وعنـد هـذا الحد نبذ بنتام الافتراض بأن علم السياسـة مستمد من الحق الطبيعى معتمدا على روح الفكاهة فى الانسان ويسأل عن ماهية هذا الحق الطبيعى ؟ وأين يعيش الخالق ؟

ويعتقد بنتام أنه قد وجد المثال فى الحقيقة التى لا تقبل الشك وهى أن كل الناس يبحثون عن اللذة ويتجنبون الالم . وعلى هـذا الاساس فانه يمكن قياس الناس ومقارنة بعضهم ببعض . ولذلك فانه من الممكن أن تصبح السياسة وعلم الفقه والشريعة علوما تجريبية تماما كعلم الطبيعة وعلم الكيمياء . كتب يقول : « يعتبر الانتاج الحاضر وأى انتاج آخر من تأليفى ، نشر عن موضـوع التشريع

أو سينشر عنه أو عن أى فرع آخر من علم الاخلاق ، محـــاولة لامتداد طريقة التجربة فى التفكير العقلى من فرع الطبيعــة حتى تشمل فرع الاخلاق » •

ويشكل مثال بنتام الذى يتمثل فى « اللذة والالم » بطرق عديدة تقدما هاما فى مجال « الحق الطبيعى » • وقد قام أساسا على حقيقة معترف بها فى كل مكان ، وهى أنه من الواضح أن كل النـــاس يستشعرون اللذة والالم • ويمكن قياس هذه الحقيقة الى حدما • فالفرد يمكنه مثلا أن يحصى عدد الاشخاص الذين قاسوا هذا العام من مجاعة فى الهند ويقوم بعمل مقارنة بين هذا العدد وبين عددهم فى العام الماضى • وكان من الواضح أيضا أن بعض أحاسيس الالــم واللذة أقوى من غيرها وأنه لذلك يستطيع نفس الانسان فى تجربة لا تمكث الا عدة ثوان معدودة أن يغير من مقدار اللذة والالم وعلى العموم كان مثال اللذة والالم أحد الامثلة العرضية بالنسبة للمفكر السياسى • ويشير جون ستيوارت الى حل بنتام فى عرضه لجميـــع الاتجاهات الفلسفية التى نافست مذهبه فى المنفعة فيقول : « انهـــا تتمثل كلها فى الوسائل التى تعمل على تجنب الاتجاه القهرى الى أى مثال عرضى وعلى التأثير على القارىء لتقبل عاطفة المـؤلف أو رأيه كشىء مسلم به فى ذاته » •

ولذلك يستطيع دائما أى فرد من أتباع بنتام ، سواء أكان عضوا

فى البرلمان مثل جروت أو موليسورث ، أو موظفا فى الدولة مثل شادويك ، أو أى منظم سياسى مثل فرانسيس بلاس - يستطيع دائما مراجعة شعوره الخاص نحو حقوق الملكية ، و « مشيرى الفتن » و « روح الدستور » و « الاهانات الموجهة لرمز البلاد » وما الى ذلك ، عن طريق فحص الحقائق الاحصائية كالنسبة العددية والدخل ، وساعات العمل ، ومعدل حالات الوفاة الناتجة عن تفشى مرض ما ، والطبقات والجنسيات المختلفة التى تقيم فى الامبراطورية البريطانية .

ولكن لم يعد لمذهب بنتام أهمية كعلم كامل للسياسة. ومامن شك فى أن اللذة والالم من الحقائق التى تتميز بها الطبيعة البشرية. ولكنهما لا يمثلان الحقائق الاساسية الهامة بالنسبة للسياسى وقد حاول أتباع بنتام بعد أن قاموا بحصر معانى الكلمات بمحاولة تقسيم هذه الدوافع كدافع غريزى وتقليد قديم وعادة ، أو كغريزة شخصية أو عنصرية كأنواع من اللذة أو الالم . ولكنهم فشلوا فى محاولتهم . وكان من الضرورى أن يبدأ البحث عن أساس يقوم عليه تفكير سياسى عقلى راسخ من جديد بين جيل أكثر ادراكا من بنتام وأتباعه لتعقد المشكلة وأقل منه تفاؤلا باحراز النجاح التام .

ويتضح شىء واحد على الأقل فى هذا البحث . يجب أن نهدف الى البحث عن حقائق متعلقة بطبيعة الانسان ويمكن قياسها ، ويجب أن نقوم بمحاولة لتأهيلها كلها حتى يمكن الاستفادة منها فى التفكير

السياسي العقلى ، أى اننا يجب أن نتبع ، فى جمع مادة علم السياسة طريقة البيولوجى الذى حاول اكتشاف عدد الصفات المشتركة التى يمكن ملاحظتها وقياسها فى مجموعة متحدة من الناس على طريقة الطبيعى الذى ينظر الى العلم أو تعود النظر اليه على أساس أنه يتكون من صفة واحدة مشتركة بالنسبة للعالم المادى بأكمله •

ولما كانت الحقائق التى جمعت كثيرة لذا وجب تصنيفها • وأعتقد أنه من الافضل للباحث السياسى أن يصنفها الى ثلاثة أنواع : حقائق وصفية وهى المتعلقة بالجنس البشرى ، وحقائق كمية وهى المتعلقة بالتغيرات الموروثة من هذا الجنس والتى يمكن ملاحظتها اما فى الافراد أو فى مجموعة منهم ، والحقائق التى تجمع بين كل من الوصفية والكمية وهى المتعلقة بالبيئة التى وجد فيها الناس وتأثير البيئة الواضح على أفعالهم واتجاهاتهم السياسية •

ويحاول طالب الطب معرفة أكبر قدر ممكن من هذه الحقائق التى تخص الجنس البشرى لاتصالها بالعلم الذى يدرسه • وما من شك فى أن الحقائق الوصفية مثلا المتعلقة بمادة التشريح البشرى وحدها والتى يجب عليه أن يستذكرها قبل أن يأمل فى النجاح تبلغ عدة آلاف • واذا كان عليه أن يتذكرها يمكنه أن يطبقها عمليا ، فيجب أن تصنف بدقة فى مجموعات مشتركة • فيجد مثلا أنه يستذكر الحقائق المتعلقة بتشريح عين الانسان بسهولة كبيرة وبدقة بترابطها

بتاريخها المتطور ، أو الحقائق المتعلقة بمفاصل اليد بترابطها بصورة يد مرئية أخذت بأشعة اكس .

وتجمع له الحقائق الكمية المتعلقة بالتغيرات من الجنس البشرى التشريحى على شكل لإحصائى ، بينما يحاول معرفة الحقائق الرئيسية الخاصة بالبيئة الصحية عندما يحصل على الدبلوم فى الصحة العامة .

ويحصل أيضا المدرس تحت التمرين فى فترة تمرينه على سلسلة من الحقائق عن الجنس البشرى على الرغم من أنها ، فى حالته ، أقل عددا ودقة وأقل ملاءمة للتصنيف من تلك الحقائق الموضحة فى كتب الطب المقررة .

واذا اتبع الباحث فى علم السياسة مثل هذا الترتيب فانه سيبد فى منهجه على الاقل باتقان موضوع فى علم النفس يشتمل على جميع الحقائق المتعلقة بالجنس البشرى التى ثبت بالتجربة امكان الاستفادة منها فى السياسة وبالتالى يصبح من السهل الاستعانة بمعلومات الباحث عند الحاجة اليها .

وعلى العموم فما زال السياسى الذى يتمرن يقـــوم فى الوقت الحاضر بقراءة أحدث الابحاث التى ظهرت فى نظرية السياسية فى مثل طالب الطب الذى قضى فترة تمرينه بدراسة أبقراط (أبو الطب) أو جالين . فهو قد تعلم بعض الحقائق القليلة المشوهة ومن ثم فقد أصبحت مفككة ، حقائق عن الجنس البشرى ، وربما تتعلق باللذة

والالم ، وبتداعى الافكار أو بتأثير العادة . وقد علم أن هذه الحقائق اختيرت من بين حقائق أخرى عن الطبيعة البشرية حتى يستطيع أن يمعن التفكير فى النظرية القائلة بأنه لا توجد حقائق أخرى . وأيا كانت هذه الحقائق الاخرى فقد ترك وشأنه لاكتشافها لنفسه . ولكنه من المحتمل أن يفترض أنهالا يمكن أن تكون موضوعا لتفكير علمى فعال . وهو يتعلم أيضا بعض القواعد التجريبية عن الحرية والحذر وما شابه ذلك . وبعد قراءته قليلا فى تاريخ الدساتير يكون قد تم تعليمه السياسى . وليس من الغريب أن الرجل العادى يفضل السياسيين القدماء الذين نسوا معلوماتهم التى اكتسبوها من كتبهم ، والاطباء الشبان الذين يحتفظون بمعلوماتهم التى اكتسبوها من دراساتهم .

ومن الضرورى أن يكون المفكر السياسى المتمرن على استعداد لان يحتفظ بالمعلومات التى اكتسبها فى حياته الدراسية عن الطبيعة البشرية فى جزء منفصل ومقدس من عقله ، والذى لن يسمح بدخول الحقائق التى وصل اليها عن طريق التمرين فيه مهما كان الجهد والدقة التى بذلت فى جمعها . فمثلا نشر البروفيسور أوستروجورسكى فى عام ١٩٠٢ كتابا هاما وممتعا جدا عن الديموقراطية وتنظيم الاحزاب السياسية يحتوى على النتائج التى وصل اليها من ملاحظة دقيقة لنظام الحزب فى كل من أمريكا وانجلترا

استمرت ١٥ عاما . ويمكن استخدام الامثلة التى وردت فى الكتاب كأساس لبيان كامل سليم لهذه الحقائق المتعلقة بالجنس البشرى التى يهتم لها السياسى ، والتى تتمثل فى طبيعة حوافزنا والحدود الضرورية لعلاقتنا بالعالم الخارجى ، وطرق التفـكير العقلى التى ظهـرت فى ماضينا البعيد والتى يجب علينا أن نسخرها الآن لاستعمالات جديدة . ولكن ليس هناك ما يشير الى أن تجربة الاستاذ أوستروجورسكى قد غيرت شيئا من معلوماته عن الطبيعة البشرية التى اكتسبها فى بادىء الامر . وتتعارض الحقائق التى شوهدت مع « التفكير العقلى الحر » و « مبدأ الحرية العام » و « العواطف التى ألهمت النـاس الذين عاشوا فى ١٨٤٨ » وينتهى الكتاب بدستور مقترح يبين أن على الناخبين انتخاب المرشحين المعروفين لهم عن طريق اعلانهم لسياستهم « التى استثنى منها عمدا ذكر أى شىء يتعلق بالحزب » . ويخيل للفرد أنه يقرأ سلسلة حية من الملاحظات عن الصور التى رسمها كوبيرفيكس عن السماوات بايمان عميق .

كان الاستاذ أوستروجورسكى عضـواً بارزا فى الحـــزب الديموقراطى الدستورى وفى مجلس الدوما فى عهد نيقولا الثانى . وما من شك فى أنه قد فطن الى أنه اذا حصل هو وزملاؤه على نفوذ قوى يساندهم فى نضالهم على أسس متساوية ضد الحكم المطلـــق الروسى فانهم يمثلون بذلك حزبا ويصبحون محل ثقــــة وتحترم

أوامرهم كحزب قائم بالفعل وليس على أساس انهم يمثلون أفرادا أحرارا اجتمعوا عن طريق المصادفة • وسوف يكتب تاريخ مجلس الدوما الاول فى يوم ما ، وسنعلم بعد ذلك ما اذا كانت تجربة الاستاذ أوستروجورسكى ومذهبه قد اختفيا معا فى غمار هذا الصراع الكبير •

قام مستر جيمس بريس بكتابة مقدمة الترجمة الانجليزية لكتاب الاستاذ أوستروجورسكى • وتبين المقدمة أن المعلومات التى اكتسبها مؤلف الدستور الامريكى عن الطبيعة البشرية فى أوكسفورد ما زالت واضحة فى ذهنه •

يقول مستر بريس « ان كل مواطن ذكى ووطنى ونزيه فى اطار الديموقراطية المثالية ، وتتبلور رغبته الاساسية فى اكتشاف الجانب الصائب فى كل نتيجة فيها جدال ويختار أحسن مرشح من بين المرشحين المتنافسين • وسيساعده تفكيره السليم بجانب معرفته بدستور بلاده على الحكم على المناقشات التى أمامه بنزاهة وبحكمة ، بينما ستدفعه حماسته الى الذهاب للادلاء بصوته » •

وتشير بعض عبارات مستر بريس الى « المثالية الديموقراطية » للاستقلال الواعى للناخب ، تلك المثالية البعيدة كل البعد عن الحقائق الفعلية فى أية دولة » •

وماذا يعنى مستر بريس بعبارته « الديموقراطية المثالية ؟ » واذا كانت تعنى شيئا فانها تعنى أحسن شكل للديموقراطية المتصلة اتصالا

وثيقا بحقائق الطبيعة البشرية . ولكن الفرد يشعر عند قراءته للصفحة بأكملها ان مستر بريس يعنى بهذه الكلمات تلك الديموقراطية التى يمكن احتمال وجودها اذا أصبحت الطبيعة البشرية كما يريدها هو بنفسه أن تكون وكما تعلم في أوكسفورد أن يعتقد أنها هى كذلك . واذا كان الامر كذلك فان هذه الصفحة تعتبر مثلا حسنا لبيان تأثير فترة دراستنا الاولية فى السياسة . ولا يوجد أى طبيب الآن يبدأ بحثه الطبى بقوله « لا يحتاج الانسان المثالى الى طعام ولديه المناعة ضد عدوى البكتريا ، ولكن هذه المثالية بعيدة كل البعد عن الحقائق الفعلية لاى شعب معروف . » ولا يوجد أى بحث فى فن التعليم يبدأ بهذه العبارة وهى أن « التلميذ المثالى » يعرف الاشياء دون أن يتعلمها ، وتتمثل رغبته الرئيسية فى تقدم العلم . فلم يوجد مثل هذا التلميذ اطلاقا .

وماذا يعنى « الاستقلال الواعى » فى عالم يكون فيه للاسباب تأثيرات ، وحيث يوجد للتأثيرات أسباب ؟

فى عام ١٨٦١ كتب مستر هيرمان ميريفال الذى كان أستاذا للاقتصاد السياسى فى جامعة أكسفورد ثم وكيلا لوزارة المستعمرات ثم وكيلا للحاكم العام فى الهند يقول :

لا يعنى الاحتفاظ بالسيطرة على شىء أو التخلى عنه المقياس الذى يحدد ميزان الربح والخسارة أو الدوافع الاكثر سموا وان كانت

أقل قوة ، التى تثيرها الفلسفة السياسية المجردة . وان الاحساس بالشرف الوطنى والكبرياء ، وروح الدفاع عن النفس المتماسكة ، ومشاعر المجتمعات المتقاربة العاطفية ، وغرائز الجنس المسيطـــرة ، والرغبة الاكيدة الغامضة لنشر مدنيتنا وعقيدتنا الدينية فى جميع أنحاء العالم ، كل ذلك ما هى الا حوافز قد لا يكترث بها الطالب فى حجرته ولكن السياسى لا يجرؤ على ذلك ... ،

وماذا تعنى هنا الفلسفة السياسية المجردة ؟ لا يستطيع أى كاتب فى الطب أن يتحدث عن علم تشريح « مجرد » يذكر فيه أن هنـــاك أناسا ليست لهم أكباد . ولا يستطيع أن يضيف أنه على الرغم من أن الطالب فى حجرته لا يعبأ بوجود الكبد الا أن الطبيعى لا يجرؤ على ذلك .

ومن الواضح أن « ميريفال » ، عندما يتحـــدث عن الفلسفة السياسية المجردة يعنى نفس الشيء الذى يعنيه مستر بريس عـــن الديموقراطية « المثالية » فيشير كل منهما الى اعتبار الطبيعة البشرية وقد عالج بعض فلاسفة القرن الثامن عشر بكل اخـــلاص ذلك الاعتبار ولم يعد أحد يعتقد اعتقادا راسخا فيه ، ولـــكنه ما زالت له مكانته الثابتة فى عالم الافتراض .

ويخيل الى أن تلك الحقيقة التى تشير الى أن هذا الكاتب أو ذاك الذى يعبر عـــن اعتبـــار الطبيعـــة البشرية التى لم يعـــد

يعتقد بأنها «مجردة» او «مثالية» ، قد تبدو ذات أهمية أكاديمية خاصة . ولكن هذه الاعتقادات غير المتكاملة يكون لها تأثيرات عملية عظيمة . ولما وجد ميريفال أن الفلسفة السياسية التى درسها معلموه فى حجراتهم هى فلسفة ناقصة ولم يجد شيئا يحل محلها ، ترك صراحة القيام بأية محاولة فكرية لمعالجة مشكلة خطيرة كتلك التى تتمثل فى علاقة المستعمرات التى يحتلها البيض ، ببقية أنحاء الامبراطورية البريطانية . ولذلك قرر انه يجب ان تحل المشكلة . ولما كان رئيس مكتب شئون المستعمرات فى وقت عصيب فان قراره سواء أكان على حق أم على صواب فلن يكون له أهمية .

وربما منع وجود مثل هذا الاعتقاد الناقص فى ذهن مستر بريس من الافادة من علم السياسة العام رغم أنه يعتبر أكثر استعدادا من أى شخص آخر فى عصره . فهو يعتبر كشخص «قرر كارها» أن ينظر الى الاشياء من وجهة النظر القديمة والتى شعر من ناحيتها بالاطمئنان عندما وجد أن التجربة لا تحمل فى ذاتها أية قاعدة موروثة !

وتتمثل الخطوة التالية فى نطاق التمرين السياسى الذى أتناوله بالبحث فى دراسة الكمية فى الاختلافات الموروثة فى الأفراد عند مقارنتهم بشخص «طبيعى» او «عادى» كرس حياته لدراسة الجنس البشرى .

واننا لنتساءل كيف يعالج الطالب هذا الجانب من الموضوع؟ فكل فرد يختلف من الناحية الكمية عن أى فرد آخر فى كل صفة من صفاته . ومن الواضح أن الطالب لا يستطيع أن يحمل فى ذهنه أو يستعين فى التفكير بكل الاختلافات حتى فى صفة واحدة موروثة يشترك فيها ١٥٠٠ مليون فرد تقريبا قد يتصادف وجودهم فى لحظة واحدة . ويستطيع أن يؤكد أو يتذكر العلاقة الكامنة بين آلاف الصفات الموروثة فى تاريخ الجنس البشرى القديم الذى يموت فيه فى كل لحظة افراد ويولد غيرهم .

ويعرض مستر هـ. ج. ويلز لهذه الحقيقة فى مقالته المؤثرة عن « الحصاد الآلة » التى أرفقها بكتابه عن المدنية الفاضلة الحديثة . وتتلخص اجابته فى أن الصعوبة ذات أهمية ضئيلة جدا فى جميع أمور الحياة العملية ، أو ضرورية بالنسبة لأى شىء ما عدا الفلسفة أو التعميمات الواسعة . ولكنها تعتبر ذات أهمية بالغة فى الفلسفة . فاذا طلبت بيضتين فى طعام الافطار وأحضرت بيضتين بيضاويتين غريبتى الشكل فانهما سيلبيان غرضى الفسيولوجى » .

وعلى العموم فان تميز الفرد بمميزات خاصة تعتبر ذات أهمية بالغة ليس عند معالجته «للفلسفة والتعميمات الواسعة فحسب ، ولكن فى أمور حياته اليومية العملية . وعلى السياسى

المسئول عن ظهور نتائج فعلية فى عالم معقد بطريقة غير مألوفة ان يقوم باستخدام صفات مميزة ودقيقة تختلف عما يستعملها المربى . ومن المحتمل أن يحصل السياسى الذى يريد سكرتيرين خصوصيين أو ضباطا أو مرشحين على دعامة قوية من المنشقين والنقابيين مساوية لتلك التى يحصل عليها السياسى الـذى لا يطالب «بشخصين» .

وهنا يبدو أن معظم الكتاب فى السياسة والعلوم بعـد أن قاموا بوصف الطبيعة البشرية كما لو كان جميع الناس متساوين بالنسبة للفرد المتوسط ، وحذروا قراءهم من عدم تحرى الدقة فى وصفهم ــ أنهم لا يستطيعون أن يقوموا بأكثر من ذلك .

فمثلا تضمن ذلك الجزء الذى كتبه جون ستيوارت مـل عن منطق العلوم الأخلاقية فى نهاية كتابه «أسس المنطـق» ، ويبدو أيضا أنه يبين أن الأحكام والتنبؤات السياسية التى لم يراع فيها الطلاب وأساتذة السياسة الدقة ، لا تثير أى شعور قوى بالخوف .

فيقول : « انى أعتقد باستثناء درجة الشك التى ما زالـت قائمة بالنسبة لمدى الاختلافات الطبيعية فى اذهـان الأفراد والظروف الطبيعية التى قد تعتمد عليها (اعتبارات ذات أهمية ثانوية عندما ننظر الى الجنس البشرى فى المتوسط او جملـة) أعتقد أن أشد الاحكام توافقا ستجمع على أن القوانين العامة

للعناصر المختلفة المكونة للطبيعة البشرية أصبحت الآن مفهومة بدرجة كبيرة مما اتاح للمفكر القدير استخلاص طابع الشخصية المعين من هذه القوانين ، ذلك الطابع تكونه أية ظروف مفروضة، مع محاولة أكيدة لتحرى الدقة ، فى الجنس البشرى بوجه عام» .

ولن يوجد غير أفراد قلائل فى هذه الأيام يشاركون «مل» فى اعتقاده . ولما كنا نشعر بأننا عاجزون عن استخلاص تأثير الظروف على الشخصية بمحاولة «الوصول الى اليقين» فاننا نشعر جميعا بالرغبة فى الحصول على فكرة أكثر دقة عن التغير البشرى ان أمكن عن تلك التى يمكن الوصول اليها بالتأمل فى الجنس البشرى فى المتوسط أو جملة .

ولحسن الحظ أوضح لنا من قبل دارسو علم الأحياء الرياضيون وعلى رأسهم الاستاذ كارل بيرسون الذى يعتبر أبرز رائد فى ذلك المضمار ، ان هذه الحقائق المتعلقة بالاختلاف المتوارث يمكن تصنيفها حتى نستطيع أن نتذكرها دون الحاجة الى حفظ ملايين الحالات المنفصلة عن ظهر قلب . قام الاستاذ بيرسون وغيره من الكتاب فى مجلة بيوميتريكا الدورية بفحص عدد كبير من أوراق شجر الزان وحيوانات القواقع وجماجم بشرية وغير ذلك وسجلوا فى كل حالة الاختلافات فى أية صفة فى مجموعة متقاربة من هذه المجموعات بهذه الطريقة التى وصفها الأستاذ بيرسون «ملاحظة شيء متعدد الزوايا» والتى أسميها

حسب تفكيرى وتذكرى غير الواضح لشكلها « بالقبعة التى تميل على أحد جانبى الوجه» .

ومثل هذه الأشكال عندما تبين النتائج التى توصل اليها من أن تشابه النسل للوالدين فى تطور غير دقيق دائما ، فانها (مثل ما تشير اليه البيانات المتعلقة بحالات التغير الذى يحدث بالمصادفة) متماثلة تماثلا معقولا . ويوجد أكبر عدد ممكن من الحالات فى المتوسط . ويطابق الخط البيانى الصاعد للحالات التى أعلى من المعدل وكذا الهابط للحالات التى أسفل منه مطابقة وثيقة مع بعضها البعض . ويشكل صانعو الأحذية مثل هذا الرسم البيانى نتيجة للخبرة ، فيقومون بصنع عدد كبير من الأحذية بأحجام متقاربة فى الطول والعرض من المتوسط وعدد قليل نسبيا بأحجام أقل أو اكبر من المتوسط قليلا .

وسأعالج فى الفصل التالى استعمال مثل هذه الرسوم البيانية فى التفكير العقلى سواء أكانت منظمة تنظيما فعليا ، أم نقوم بتخيلها بالتقريب . وقد بينت فى هذا الفصل أولا : أنه يمكن تذكر تلك الرسوم البيانية بسهولة (لأن ذاكرتنا البصرية تحتفظ بالصورة التى يقوم الخط الأسود بطبعها على سطح أبيض من ناحية) واننا نستطيع لذلك أن نحمل فى أذهاننا الحقائق الكمية لعدد من الاختلافات بعيدة كل البعد عن امكان تذكرها اذا نظرنا اليها على أساس انها حالات منفصلة . ثانيا :

أننا نستطيع بتخيل هذه الرسوم البيانية أن نكون فكرة دقيقة تقريبا عن طبيعة الاختلافات التى يمكن توقعها بالنسبة لأية صفة موروثة فى جماعات من الأفراد لم تولد بعد أو لم تفحص بعد .

ويتلخص القسم الثالث والأخير الذى يمكن أن يدخل تصنيف معلومات الانسان فى نطاقه ، من أجل أغراض دراسة السياسة فى الحقائق المتعلقة ببيئة الانسان وتأثيرها على شخصيته وأفعاله . ويمثل هذا التغير وهذا التقلب الكبير الذى تمتاز به البيئة العقبة الاساسية فى السياسة . ويعتبر الجنس البشرى والتقسيم الكمى لاختلافاته ثابتا عمليا بالنسبة للسياسى الذى يقوم ببحثه فى عدة أجيال قليلة فقط . وتتغير بيئة الانسان بسرعة متزايدة . حقيقة ان الطبيعة الموروثة فى كل انسان تختلف عن طبيعة أى انسان آخر . ولكن من الممكن توقع الاختلافات المتكررة والأكثر أهمية لكل جيل ومن ناحية أخرى يمكن تصنيف الاختلاف بين بيئة فرد وبين بيئة أفراد آخرين دون عمل رسم بيانى كما يمكن تذكرها أو التنبؤ بها دون الالتجاء الى وسيلة ما . وقد قام «باكل» فعلا بمحاولة لتفسير الوضع الحالى لتاريخ التفكير العقلى للامم الحديثة والتنبؤ بمستقبله بالاستعانة ببعض التعميمات القليلة بالنسبة لتأثير هذا المظهر البسيط من بيئتهم الذى يتمثل فى المناخ . ولكن « باكل » أخفق

فى محاولته ، ولم يحاول أى شخص آخر معالجة الموضوع مرة أخرى بنفس الثقة التى كان يتميز بها «باكل» .

ونستطيع بلاشك أن تتبين وجود بعض الحقائق فى بيئة أية أمة أو طبقة فى أى وقت تشكل تجربة مشتركة ومن ثم تأثير مشترك لجميع افرادها . ويعتبر المناخ أو اكتشاف امريكا أو اختراع الطباعة او معدل الأجور والأسعار احدى هذه الحقائق وقد تأثر كل المنشقين بتذكرهم لبعض الحقائق المعينة التى لا يعلمها الا عدد قليل جدا من رجال الكنيسة ، كما تأثر كل الايرلنديين بالحقائق التى يحاول معظم الانجليز نسيانها . ولذلك يجب على من يدرس علم السياسة أن يقرأ التاريخ ولاسيما تاريخ أحداث وعادات التفكير فى الماضى القريب الذى يحتمل ان يؤثر فى الجيل الذى سيقوم بالعمل فى نطاقه . ولكنه يجب أيضا أن لا يؤمل كثيرا فى الحصول على قوة كبيرة للتنبؤ الدقيق من جراء قراءته هذه . وعندما يبين له التاريخ بأن هذه التجربة أو تلك قد نجحت او فشلت فيجب عليه دائما أن يحدد الى أى مدى يرجع هذا النجاح او هذا الفشل الى الحقائق المتعلقة بالجنس البشرى التى يفترض بأنه قد تشبث بها فى عصره ، والى أى مدى يرجع ذلك الى الحقائق المتعلقة بالبيئة . وعندما يبين أن هذا الفشل يرجع الى تجاهل حقيقة ما من حقائق الجنس البشرى ، ويستطيع أن يحدد بدقة ما هى هذه الحقيقة ، فانه

سيكون فى استطاعته أن يربط معنى حقيقيا بالقواعد المتكررة التى يحذر بها الأعضاء القدامى لأى جيل الأعضاء المحدثين بان آراءهم « تتنافى مع الطبيعة البشرية » . ولكن اذا كان من المحتمل أن يكون الفشل راجعا الى احدى مظاهر البيئة الفكرية أى الى العادة أو العرف أو الذاكرة فيجب ان يكون على حذر دائما من التعميمات عن «الشخصية» القومية أو الجنسية .

وتتلخص أحد اسباب الخطأ البارزة فى التفكير السياسى الحديث فى ارجاع البقاء النسبى الذى لا يتبع الا الوراثة البيولوجية الى العادة الجماعية . ومن الممكن بناء علم بأكمله على أساس تعميمات سهلة عن « الكلت » و « التيوتون » ، أو عن الشرق والغرب . كما أنه من المحتمل أن تختفى الحقائق كلها التى استخلصت منها التعميمات فى جيل واحد . وقد جرت العادة على ان تتغير العادات القومية ببطء فى الماضى وذلك لأنه كان من النادر خلق طرق جديدة للحياة ولم تظهر الا بالتدريج ، وكذا لأن وسائل تبادل الآراء بين فرد وآخر أو بين أمة وأمة أخرى كانت غير دقيقة . ولذلك يحتمل أن يظل التقرير الذى يتوخى الحقيقة عن عادة قومية متسما بالصدق لعدة أجيال . ولكن من المحتمل الان أن يحوز أى اختراع يولد تغيرات فعلية فى الحياة الاجتماعية والصناعية القبول والاستحسان فى

احدى البلاد فى النصف الآخر من الكرة الأرضية كما تقبلـــه المكان الذى نشأ فيه أصلا • فالسياسى الذى يريد أن يعلن عن شىء هام يمكنه أن يعلنه لخمسمائة مليـــــون من النظارة فى الصباح التالى ، كما تبدأ نتائج الأحداث الجسام مثل معركـة بحر اليابان فى الظهور فى أماكن تبعد عن مكان حدوثها بآلاف الأميال فى ظرف ساعات قليلة من بدء حدوثها • وقد حـدث كثيرا شيئا من هذا القبيل فى نطاق الأحوال الجديدة وفى ضوء هذا يمكن أن يمر الشرق غير المتغير غدا بفترة ثورة وأن هـذا التباين الانجليزى فى الآراء أو هذا الطموح العسكرى الفرنسى ما هو الا عادات يمكن التخلص منها أو استئصالها من أساسها اذا وجد حافز قوى ، كما يستطيع الأفراد المستقلون التخلص من عاداتهم الى الاعتقاد تحت تأثير ألفاظنا وعاداتنا العقلية المرتبطة بها بأن ا كشىء فريد له خاصية ب أو كعدد من الأفراد له نفس هـذه الخاصـية •

وتدفعنا هذه الصور المجسمة والمتشابهة الى أن نستعمل فى تفكيرنا السياسى تلك الطريقة فى الاستنتاج البديهى من تعميمات واسعة لم تعالج من قبل والتى طالما عارضها العلم الطبيعى منـذ أيام « بيكون » • ولا يوجد الآن أى عالم يقول ان الكواكب تدور فى دوائر لأنها كاملة وأن الدائرة تعتبر شكلا كاملا ، أو أنه يجب أن يكون أى نبات اكتشف حديثا علاجا لمرض مـــا

لأن الطبيعة قد اسبغت على كل النبآتات خواص شفائية • ولكن الديموقراطيين «المنطقيين» ما زالوا يقولون فى أمريكا أنه طالما أن جميع الناس متساوون فيجب أن تقوم الوظائف السياسية بالتعاقب • وأحيانا يقول التعاونيون «المنطقيون» من ناحية المبدأ «انه يجب أن تمتلك الدولة جميع وسائل الانتاج حتى القول بأنه يجب أن يتم انتخاب جميع مديرى السكك الحديدية عن طريق الاقتراع العام» •

أسلوب التفكير العقلى السياسى

اقترن الأسلوب التقليدى فى التفكير السياسى بكثير من أوجه النقص والثغرات التى تخللت مادته وموضوعيته . اذ قلما تتعمق عند تفكيرنا فى السياسة الى ما وراء تلك التكوينات او الأنماط البسيطة التى تتجسم فى عقولنا أو نحاول سبر غور ما يتسم به هذا العالم من تعقيد وتشابك .

والتعبيرات السياسية المجردة كالحرية والعدالة والدولة انما تعلق بأذهاننا كأشياء لها وجودها الحقيقى . وتوحى لنا بعض الالفاظ السياسية « كالحكومات » او « الحقوق » او «الايرلنديين» بفكرة «الطابع الرمزى المميز» . ونحن نحذو حذو الطبيعيين من القرون الوسطى فى ميلنا الى الافتراض بأن جميع الأفراد الذين ينتمون الى نوع واحد يغلب عليهم طابع مميز دون تفريق .

ونجد فى السياسة أن الافتراض الحقيقى الذى يأخذ شكل أن كل «ا» هو «ب» يعنى فى الغالب ان عدد الأفراد او الأشياء تتميز بصفة ب بدرجات متفاوتة تبلغ مثل عددها فى الافراد أنفسهم .

ولقد أصبح الاعتقاد بتعدد الأسباب وتفاعلها فى العلم الطبيعى أيضا جزءا من الغذاء العقلى المعتاد . ولكن فى السياسة ، اذا تحدث الطالب الذى تزود بالثقافة ورجل الشارع فان النتيجة ستبدو كما لو كان لها سبب واحد .. فاذا أثير موضوع الحلف لمبرم بين انجلترا واليابان مثلا فانه من المحتمل ان يصبح موضوع نقاش بين اثنين من المهتمين بالسياسة سواء أكانا من المتجولين فى أطراف هايدبارك او من عمداء الكليات الذين يراسلون «التيمز» فيقول احدهما ان جميع الامم تخضع للشك والريبة ، ومن ثم فان الحلف سيسقط بكل تأكيد ، بينما يقول الآخر ان جميع الأمم توجهها مصالحها الخاصة ومن ثم فان الحلف سينجح بكل تأكيد . ولقد استمع « المالك » فى فصل بعنوان «قوس قزح» فى رواية سيلاس مارنار لآلاف من المناقشات السياسية قبل أن يصل الى تكوين القاعدة العامة وهى «ان الحقيقة تكمن فيك انت : فأنت على صواب وعلى خطأ كما أقول دائما . »

وقد اعترف فى نصف القرن الأخير ، فى ميدان الاقتصاد بخطر معالجة الالفاظ المجردة والتشابهة كما لو كانت معادلة لأشياء مجردة وعلى نسق واحد . وعندما بدا ذلك واضحا بجلاء قام انصار مذهب الاقتصاد السياسى «القديم» بمعارضته وأعلنوا أن التجريد شرط ضرورى للتفكير ، وانه يمكن تجنب

جميع الاخطار الناتجة عنه اذا تبينا بوضوح طبيعة الشيء الذي نعمله . وكتب باجيهوت الذي يمثل نقطة الالتقاء بين علم الاقتصاد القديم وعلم الاقتصاد الحديث في عام ١٨٦٧ يقول :

«ان الاقتصاد السياسي .. علم مجرد تماما كما يعتبر علم القوى المتوازنة وعلم القوى المتحركة علوما استنتاجية ، ومن ثم فانه يعالج موضوعا افتراضيا .. ولا يتعرض لانسان حقيقي بالفعل كما نلمسه في الواقع ولكنه يتعرض لانسان خيالي ومبسط » .

ويستطرد قائلا انه يمكن وصف انسان حقيقي ومعقد برسم صور خيالية متتابعة ومختلفة لاشخاص بسطاء . ويقول : تتمثل القاعدة التي يقوم عليها العلم في التفكير السليم في أنها تقوم على حالات بسيطة فابدأ بمعرفة الى أي مدى تمارس القوة الرئيسية نشاطها عندما لا يكون هناك الا القليل الذي يعمل على اعاقتها . وعندما تدرك ذلك أضف اليها التأثيرات المنفصلة للعوامل المعرقلة والمتداخلة » .

ولكن هذه العملية العقلية التي تتمثل في طبع الألوان على الحجر ليست بالوسيلة التي تتبع في طريقة العلم ، على الرغم من أنها تعتبر أحيانا وسيلة ناجحة لتعلمه . ولكن باجيهوت لم يبين لنا كيف استخدم صورته المعقدة للانسان التي تكونت

من عمليات متتابعة من التجريد استخداما فعلياً فى التنبؤ بنتائج اقتصاديـــة .

وعندما نشر «جيفونز» نظريته فى الاقتصاد السياسى فى عام ١٨٧١ كان من المعروف ان الصورة الخيالية المبسطة للانسان أو حتى الصورة المركبة التى تتكون من سلسلة من الصور الخيالية والمختلفة والمبسطة لعدد من الأشخاص تعتبر ذات أهمية قليلة جدا كعامل فى الغاء قانون المصانع او التوسـط فى موضـوع الأجور المنخفضة ، على الرغم من أنها مفيدة فى توضيح المسائل التى لا تزال قيد البحث . ولذلك فقد بنى «جيفونز» طريقته فى الاقتصاد على اساس التباين فى حالات الأفراد وليس على أساس تشابهها وتماثلها . وقام بتنظيم ساعات العمل فى أوقات العمل ، أو وحدات الاكتفاء من صرف النقود على رسوم بيانية تبـين الزيادة والنقص . واستعمل طرقا رياضية ليبين نقطة تلاقى أحد الخطوط البيانية ، سواء أكان يمثل تقديرا خياليا او بيانا لحقائق مؤكدة ، بالخطوط الأخرى الى المنفعة القصوى .

وعلى العموم فهناك شىء يتجاوب تقريبا مع الطريقة التـى يصل بها الأشخاص العمليون الى نتائج عملية وهامة، فمدير السكك الحديدية الذى يرغب فى اكتشاف أكبر معدل من الرسوم التى تتحملها حركته لا يهتم اذا قيل له ان المعدل سيكون مرجعه الى القانون عند تحديده ـ لا يهتم بأن الناس يعملون للحصول على

الثروة بمجهود ضئيل بقدر الامكان ، نتيجة لعدم رغبتهم فى التخلص من عادة روتينية فى العمل • وهو يبحث عن طريقة تمكنه من تكوين تقدير كمى لما يحدث تحت ظروف معينة ، بدلا من أن تمده فقط «بتفسير» شفهى لما قد يحدث • وعلى العموم فانه يستطيع ـ وأعتقد أنه غالبا ما يقوم به الآن بالفعل ـ استعمال طريقة جيفونز للحصول على نتائج محددة فى أنصاف البنات والأطفال من تقاطع الخطوط البيانية التى تبين الاحصائيات الفعلية لمعدل الصرف أو الحركة •

ومنذ عصر «جيفونز» لاقت طريقته التى ألفها فى هذا المجال قبولا وانتشارا واسعا • فأصبح الاقتصاد والعمليات الاحصائية أكثر تشابها تقريبا ، كما اتخذت الخطوة فى تقرير وبيان المشاكل المتعلقة بالاجهاد او الذكاء المكتسب ، وبالشعور بالمحبة العائلية والاقتصاد الشخصى ، وبالادارة التى يقوم بها المقاول او الموظف المعين • وقد قال البروفسور مارشال فى مناسبة أخرى ان التفكير العقلى النوعى فى الاقتصاد قد تلاشى بينما بدأ التفكير العقلى الكمى يحل محله •

ولكن الى أى مدى يمكن حدوث مثل هذا التغيير فى طريقة مناقشة تكوين وعمل النظم السياسية وليس فى المسائل الصناعية والمالية فحسب ؟

ما من شك فى أنه من السهل انتقاء مسائل سياسية يمكن

بوضوح معالجتها بطرق كمية . ويستطيع الفرد مثلا أن يعرض لموضوع اختيار افضل واضخم قاعة للمناقشات ليقوم المجلس الاتحادى للامبراطورية البريطانية باستخدامها فى مباشرة اعماله بافتراض أن موضوع الشكل قد استقر الرأى عليه . وتتلخص العناصر الرئيسية لموضوع الاختيار فى أنه يجب أن تكون القاعة فسيحة بقدر الامكان حتى تستطيع بجانب اظهار الشعور بالوقار أن تستوعب أكبر عدد من الأعضاء الذين يقومون بتمثيل المصالح وتنفيذ عمل اللجنة كما يجب ألا تكون واسعة جدا مما يؤدى الى وضع العضو فى مكان يحول بينه وبين تركيـــز ذهنـــه فى المناقشة . وسيمثل حجم القاعة الذى استقر الرأى عليه توافقا بين هذه العناصر ، فيستوعب عددا أقل من المرغوب فيه اذا كانت الحاجة الى التمثيل والشعور بالوقار فقط فى الاعتبار الاول ، ويستوعب عددا أكبر من المطلوب اذا كان الاهتمام قاصرا فقط على اجراء المناقشة فى جو سليم .

وتستطيع جماعة من الاقتصاديين أن يتفقــوا على تخطيط أو تخيل سلسلة من «الرسوم البيانية» تمثل الفائدة التى يمكن الحصول عليها من زيادة وحدة الحجم فى الشـــعور بالوقار ، وصلاحية التمثيل ، ومد المجلس بالاعضاء للقيام بعمل اللجنة ، وبالصحة العامة ، وغيرها ، وكذا الضرر الناشىء عن زيادة وحـــدة الحجم كعامل يؤثر فى اجراء المناقشة فى جو سليم ، وهـــكذا .

ومن المحتمل أن تكون الخطوط البيانية التى تمثل الاحساس بالوقار وصلاحية التمثيل وليدة التقدير المباشر . وسيقوم الخط البيانى الذى يمثل الامكانية الملائمة للاستماع على أساس «التغيير المتعدد الجوانب» الفعلى ، مبينا مقدار المسافات التى تمكن الأفراد من مختلف الطبقات والأعمار من الاستماع للمناقشة وتسمح لأصواتهم بالوصول الى جميع الأفراد فى حجرة بهذا الشكل . ومن المحتمل أن يتفق الاقتصاديون بعد المناقشة على الأهمية الكبيرة لكل عنصر فى القرار النهائى . ويمكن التأثير فى اتفاقهم بالطريقة الاحصائية المألوفة لتقدير أهمية الموضوع .

وربما يتمثل الحل فى جعل مساحة الأرضية ١٤ قدما مربعا فى حجرة ارتفاعها ٢٦ قدما لكل فرد من الـ ٣١٧ عضوا وعندما يتم الاتفاق على هذا الحل فانه سيكون هناك شخص فى طرف الحجرة عند حد الاستماع (ربما يمثل رجلا متوسطا متمتعاً بالصحة ويبلغ من العمر ٧٤ عاما) لا يستطيع أو يكاد يستطيع سماع شخص فى الطرف الآخر عند الحد الذى يصبح فيه الحديث واضحا . ومن المحتمل أن يبين حد «الاستماع» على الخط البيانى الذى يمثل تناقص الفائدة المرجوة من الزيادة المتتابعة لعدد الأعضاء من وجهة نظر عمل اللجنة ربما يبين ذلك ضرورة اما تخفيض مقدار العمل حتى يصل الى حد أقل بكثير من المتبع فى البرلمانات القومية ، أو أن يقوم به أفراد غير أعضاء

فى المجلس نفسه • ومن المحتمل أن ينتهى الخط البيانى الـذى يمثل الشعور بالوقار عند الحد الذى يمكن عنده التأثـير على رئيس جمعية المهندسين المعماريين البريطانية حتى يمتنع عـن مراسلة التيمز •

وسوف تدور أية مناقشة على هذا المنوال ، حتى لو كانـت الرسومات البيانية على هيئة احاديث ، حقيقية وعملية • وبدلا من أن يصر شخص ما على أن قاعة برلمان امبراطورية عظمى يجب أن تمثل هيبة ووقار عملها الذى أنشئت من أجله ، وان يقـوم شخص آخر ويعلن أن المجلس الذى أسس لمناقشة الأمور ولا يستطيع أن يناقشها ليس له أهمية ، فان كـلا منهما سيكون مضطرا الى أن يتساءل عن «مقدار هذه الهيبة ؟» و«مدى امكان تهيئة الجو المناسب للمناقشة ؟» وكما هو فى الواقع فان المهندس المعمارى ، وقد فرغ من بحث هذا الموضوع يهتم كثيرا بتأثـير الذوق والجمال ولا يهتم اطلاقا بموضوع تهيئة الجو المناسب للمناقشة • وللأسباب التى يبديها فى تقاريره أسباب مقنعة وذلك لأن الاعتبارات الأخرى ليس لها وجود فى تفكير لجنة البنـاء التى لا تفكر الا فى عنصر واحد فقط من المشكلة فى وقـت ما ولا تحاول أن تربط بين جميع العناصر ، والا سيكون مـن المستحيل أن نفسر أن قاعة المناقشـة فى مجلس النـواب فى واشنجتن مثلا لم تعد صالحة لمناقشات النواب كما لا تصـلح

الملعقة التى يبلغ عرضها ١٠ أقدام لشرب الحساء . ولقـــد ارتكب الزعماء البارزون فى حركة المؤتمر الوطنى فى الهند نفس الخطأ فى عام ١٩٠٧ عندما قرروا أن الترتيبات الصعبة المتعلقة بموضوع الاضرابات لابد وأن تناقش بين ١٥٠٠ ممثل فى سرادق ضخم يشهده جمع من النظارة يبلغ حوالى ٢٠٠٠٠ شخص ، كان ينحصر تفكيرهم فى الحاجة الى اقامة مشهد ضخم ومؤثر . ولا يختلف مجلس بلدية لندن كثيرا عن ذلك . فبالرغم من استخدام طريقة التفكير العقلى الكمية فى مثل هذه الامور واحتمال أن يجـد الأعضاء أنفسهم فى عام ١٩١٢ وقد أصبح لهم قاعـــة جديدة مصممة تصميما بديعا لاظهار عظمة ووقار لندن وتقدم فنهـم المعمارى ، الا أنها لا تصلح لاى غرض آخر .

ولا يتغير جوهر الطريقة الكمية عندما يوجد الحـــل فى «كميات غير معروفة» وليس فى واحدة فقط. فخذ مثلا الموضوع المتعلق بأحسن انواع المدارس الابتدائية التى يمكن اقامتها فى لندن . فلو فرض أنه لن يكون هناك الا نوع واحد فقط من المدارس فان المسألة ستكون بنفس الوضع الذى كان عليـــه موضوع حجم قاعة المناقشات . ولكنه من الممكن اقامة أربع أو خمس مدارس مختلفة فى معظم أنحاء لندن يستطيع كل طفل أن يصل اليها بسهولة . ومن ثم تنحصر المشكلة فى اختيار عدد محدد من الأنواع حتى يمكن ضمان أن تكون درجة « عدم التآلف »

بين الطفل ومنهج التعليم منخفضة بقدر الامكان • واذا عالجنا موضوع الاستعداد العام (او الذكاء) عند الاطفال كشيء متغير نسبيا ، فان المشكلة ستنحصر عندئذ فى ملاءمة أنواع المدارس للنواحى المتعددة الجوانب والثابتة للتباين العقلى • ومن المحتمل حينئذ ان يتضح امكان الحصول على أحسن النتائج من انشائه أنواعا من المدارس بحيث يسمح بالدخول فى المدرسة الاولى بـ ٢ ٪ ممن يتميزون بذكاء طبيعى عظيم وفى الثانية ١٠ فى المائة يتميزون بمستوى الذكاء الذى يليهم • وفى الثالثة ٧٦ فى المائة من متوسطى الذكاء وفى الرابعة ١٠ فى المائة من الأقل نسبيا من معدل الذكاء الطبيعى وفى الخامسة ٢ فى المائة من «ضعاف العقول» أى أن على السلطات المحلية أن تقوم على ضوء هذه النسبة باقامة مدارس ثانوية ومدارس عليا ومدارس متوسطة ومدارس أقل من المتوسطة ومدارس لضعاف العقول •

ومن المحتمل أن يهدف التقدم العام فى التربية وفى الظروف المنزلية الأخرى الى «طمس» التعدد فى الاختلاف ، أى تربية عدد أكبر من الأطفال فى مستوى الذكاء الطبيعى ، أو يزيد عدد الأطفال الذين يتميزون بذكاء موروث خارق للعادة ويستطيعون أن يظهروا هذه الحقيقة ومن ثم يجعلونها «سطحية». وقد تؤدى أية حالة الى حدوث تغيير مقبول فى أحسن نسبة بين أنواع المدارس أو حتى فى عدد الانواع •

وسيكون من الصعب التأثير على لجنة من السياسيين الموافقـــة على رسم خطوط بيانية تمثل الفائدة الاجتماعية التى يمكــن الحصول عليها نتيجة اكتفاء متزايد من تلك الاحتياجـات التي تبرزها الاشتراكية والفردية • وعلى العموم فمن الممكن حملهم على الاعتراف بأن اكتشاف هذه الخطوط البيانية لهذا الغرض ليس الا من باب الملاحظة والبحث ، وأن أحسن توزيع ممكــن للواجبات الاجتماعية بين الفرد والدولة سيقطع الخطين البيانيين فى نقطة ما • وأما بالنسبة لكثير من المؤمنين بمذهب الاشتراكية والفردية فيعتبر مجرد محاولة للتفكير فى مثل هذه الطريقة الخاصة بمشكلتهم مجهودا له قيمته الكبرى • واذا احتاج الامر الى أن يسأل الاشتراكى والفردى أنفسهما : «الى اى مدى يمـــكن تطبيق الاشتراكية ؟ » او «الى أى مدى يمكن تطبيق الفردية ؟» فعند هذا الحد نكون قد وصلنا الى أساس المناقشة الفعلية حتى لو تحتم على أحدهما أن يجيب : «المذهب الفردى بأكمله وليس الاشتراكى» • وعلى الآخر أن يقول : «المذهـــب الاشتراكى بأكمله وليس الفردى • »

ولا شك فى أن اية خطوة نحـــو تحقيـق الاشتراكية أو الفردية سيغير من طبيعة العناصر الاخرى فى المشكلة ، أو أنه من المحتمل أن ييسر اختراع مثل الطباعة ، أو الحكومة النيابية أو اختبارات الخدمة المدنية ، أو فلسفة المنفعة ، امكان تلبية رغبات

كل من الاشتراكى والفردى الى أقصى حد ـ هذه الحقيقة تعمل على تعقيـــد المشكلة ولـكنها لا تعمل على تغيير طابعها الـــكمى •
وتتلخص النقطة الرئيسية فى أنه فى كل حالة يستطيع فيها المفكر السياسى أن يتبنى ما يسميه البروفسور مارشال بطريقة التفـــكير العقلى الكمى ، فان معجم كلماته وطريقته سيلفتان نظره الى أن أية حالة فردية يعالجها تختلف عن أية حالة أخرى وأن أى تأثير ما هو الا نتيجة أسباب عديدة ومتباينة وانه لا يمكن طبقا لذلك أن نقدر نتيجة أى عمل تقديرا دقيقامالم يدخل فى حسبانـــه أحواله وأهميتهم الوثيقة •

ولكن الى أى مدى يمكن تطبيق مثل هذه الطرق الكمية عندما يعالج السياسى موضوع التشريع الكامل بأموره الكثيرة التعقيد ولا يهتم بمشكلة كمية تتصف بالسهولة والوضوح كبناء القاعات أو المدارس ، أو بمحاولة تفسير التعبيرات المجردة مثل الاشتراكية او الفردية تفسيرا كميا ؟

وسيكون فى استطاعتنا الرد على هذا السؤال اذا وضعنا فى أذهاننـــا وصفا للطريقة التى فكر فيها أحد السياسيين فى مشـــكلة دستورية خطيرة •

خذ مثلا الملاحظات التى أشار اليها «مستر مورلى» عن رأى جلادستون فى حكم البلاد فى خريف وشتاء عام ١٨٨٥ ـ ١٨٨٦• فقد علمنا أن جلادستون قد أمعن تفكيره من قبل ولعدة أعوام

فى ايرلندا فى فترات متعددة وكان تفكيره يتسم بالقلق • وفى وصفه لنفسه يقول « انى افكر باستمرار فى الموضوع » و «أعد نفسى بالدراسة والتأمل •»

كان عليه أولا أن يدرس طبيعة الشعور السائد فى كل من انجلترا وايرلندا ويبين الى أى مدى وبأى مؤثرات يمكن توقع حدوث تغيير فى الأوضاع • أما بالنسبة للشعور السائد فى انجلترا فيقول : «ان ما أتوقعه هوتحول بطىء وسليم للافكار داخل العقول يعمل على تحقيق الغاية النهائية •» ومن ناحية أخرى لن تتغير رغبة الايرلنديين نحو تحقيق حكم ذاتى ويجب أن ينظر اليها فى الحد الزمنى لمشكلته كشىء «ثابت» • وعلى العموم فانه يعتقد أنه يمكن أن تنمو «علاقة متبادلة» بين كل من انجلترا وايرلندا •

وقبل أن يصل الى اتخاذ قرار بشأن نوع حكم البلاد بحث كل تغير قابل للتفكير فيه ، ولا سيما تطور حكم بلاد ايرلندا ، أو تنظيم اتحاد فيدرالى يضم الممالك المتحدة الثلاث • وسيجد هنا وهناك امثلة فى تاريخ هنغاريا النمساوى ، وفى تاريخ النرويج والسويد ، أو فى تاريخ الحكم « ذى الصبغة الاستعمارية » وانه ليقرأ كل يوم تقريبا مؤلفات بيرك ويتعجب : «ما أحسن هذه المجلة الحافلة بالحكم والأمثال بالنسبة لايرلندا وأمريكا •» وسيجد شيئا ينفعه من قراءة فصل عن المجتمعات

التى لا تتمتع باستقلال كامل فى كتـــاب ديجى « القانـــون الدستورى» . وهو يحاول أن يفهم المسألة خلال آراء حية عن طريق مناقشات شخصية وثيقة وبتخيله ما سيكون عليه تفكـير «العالم المتمدين» . وعندما يكون قد قطع شوطا كبيرا فى بحثه فانه سيجد تقاريرما احصائية محددة كتبها له «ولبى وهاملتون موضحة بالارقام» ، وسيجد «ارقاما ثابتة عن المسائل المتعلقـة بالمال والارض .» وسينتهى به المطاف تقريبا عند بحثه لمسـألة ما اذا كان نصيب الايرلنديين عند دفع ضريبـــة الامبراطورية سيكون ١/١٥ أو ١/١٠ من الضريبة الكلية .

ويعتبر الزمن والأشخاص من العوامل الهامة فى تقـديره . واذا وافق لورد سالزبيرى على تقديم بيان عن الحكم الذاتـى لايرلندا فان المشكلة ستتغير تغيرا كليا تبعا لذلك . وسـيحدث نفس الشيء اذا أسفرت الانتخابات عن استقلال وتحرر تـــام لكل من الايرلنديين والمحافظين . ويصف مستر مورلى عند تقرير بيانه الاجمالى اهتمامه وشغفه الجارف بالحرية العامة السامية والأبدية بالحكم الذاتى » .

وليس من المحتمل أن يشير بيان مستر مورلى الى اكثـر من جانب فى المسائل التى لابد وأنها كانت فى ذهن جلادستون فى تلك الأشهر التى قضاها فى تفكير مستمر . ولم يكن هنـاك أى شارة مثلا للعقيدة الدينية أو للمركز العسكرى او لاحتمال

فرض قيود الحكم الذاتى . ولكن كانت هناك أدلة كثيرة تبين تعقد التفكير السياسى فى تلك المرحلة عندما يفكر السياسى فى التأثير الذى قد يحدث من جراء وجود فترة انتقال جديدة فى السياسة .

ما هى اذن الطريقة المنطقية التى مكنت جلادستون من الوصول الى قراره النهائى ؟

هل كان يقوم مثلا ببحث سلسلة من المشاكل البسيطة أم ببحث مشكلة واحدة معقدة ؟ أعتقد أنه من الواضح أن عدة محاولات سهلة نسبيا فى التفكير العقلى قد أجريت . ولكن من الواضح أيضا أن مجهود جلادستون الرئيسى فى التفكير كان يتركز فى حصر كل الآراء والحقائق التى جمعت بجهد واتقان فى ذهنه فى المشكلة بأكملها . ومما يثبت ذلك تلك العبارة التى يبين فيها مستر مورلى ، الذى كان ملازما لجلادستون فى عمله الفكرى فى هذه الفترة ، ذكرياته الخاصة .

فيعرض بعض ما قاله «البروفسور جاردنير» وهو أن المؤرخين يشتقون أفكار الانسان دون اكتراث وفق هواهم ويكيفونها كما يكيف العالم الطبيعى مواده وعيناته فى حجرته ويقولون أن مثل ذلك قد يكون لتعظيم شخصى محض ، أو من أجل أهداف قومية ، أو نتيجة لدوافع دينية سامية . وربما كان من المؤكد عدم حدوثه فى الحياة الواقعية . »

ومن الواضح أنه على الرغم من السهولة والمرونة التى تطبع تفكير جلاستون عند تناوله «للمواطن الكامنة والحكم الذاتى» فانه انما يبحث عن حل كمى . وهو لا ينظر الى « الحكم الوطنى» بوصفه كيانا بسيطا . فهو يعلم ان هناك عددا لا يحصى من الانماط التى يمكن ان تقوم عليها حكومة ايرلندية ، ويحاول التوفيق فى كل خطوة يتخذها فى النمط الذى يرسمه بين عدة قوى متباينة .

ومن الواضح أن جزءا كبيرا من هذا العمل الذى يتميز بالتنسيق المعقد فى العقل الباطن لمستر جلادستون . والمرء حين يجوس خلال هذه الفصول ينتابه شعور بان جلادستون انما كان ينتظر ظهور دلائل او بشائر لحل ما فى ذهنه . كان مدركا لمجهوده وكان يعلم ان هذا المجهود كان موجها نحو اعتبارات مختلفة عديدة فى آن واحد ، ولكنه لم يكن مدركا لعملية الاستدلال الفعلية التى ربما تكون أكثر نشاطا وسرعة عندما يكون نائما أو عندما يفكر فى أمر آخر عندما يكون متيقظا وفى كامل وعيه وتشير احدى العبارات التى قالها «مستر مورلى» الى الشعور الذى يألفه كل سياسى . فيقول : «ان القارىء يعلم الاتجاه الذى استقر عليه المجرى الرئيسى لتفكير مستر جلادستون . »

أى أننا نلاحظ عملية فنية أكثر منها علمية لتجربة طويلة

ولقوة عقلية راسخة أكثر منها ملاحظة لطريقة واعية .

ولكن تاريخ التقدم البشرى يتلخص فى تسخير العلم تسخيرا تدريجيا وجزئيا لخدمة الفن ، وفى السيطرة على الطبيعة وذلك عن طريق الدراسة . ومن ثم فان مشكلتنا تتبلور فى هذا السؤال هو أنها غالبا ما تكون غير قابلة لتعلمها فى الوقت الحاضر . ويوجد فى كل جيل آلاف من الشبان والفتيات الذين اهتموا بالسياسة لان تفكيرهم العقلى واحساساتهم ومشاعرهم أكثر حدة وأوسع مدى من غيرهم . ومن ثم فانهم يصبحون من أتباع مذهب التحرر أو سياسة التوسع الاستعمارى ، أو مذهب الاشتراكية العلمية أو حقوق الانسان أو حقوق المرأة . هم ينظرون الى مذهب التحرر ، والامبراطورية ، والحقوق ، والمبادىء ، فى بادىء الأمر على أنها أشياء حقيقية وبسيطة . أو انهم «كما يفعل شيللى» يرون فى الجنس البشرى كله تكرارا لا نهائيا لأفراد على نسق واحد .

ويقومون باستخدام الطرق القديمة التى ورثناها مع لغتنا السياسية وذلك عندما يتجادلون فى هذه الأمور ولكنهم سرعان ما يتملكهم الشك وعدم اليقين . وستأخذ المعلومات المتعلقة بالعالم المعقد والذى لا يمكن ادراكه بسهولة طريقها الى أذهانهم ، وهم يقولون لمن يحادثهم : ان سياستهم لا تخرج عن أن تكون مجرد الفاظ وعبارات جامدة ـ وان هناك قليلا منهم ،

فيما عدا أولئك الذين أصبحت السياسة بالنسبة لهم مهنـــة يحترفونها ، والذين ظلوا على وضعهم حتى تعـــــلموا ـ نتيجـة للاجهاد وخيبة الأمل ـ نوعا جديدا من الثقة فى معلومات جديدة •

ويرتد معظم الناس بعد خيبة أملهم الأولى عن تقاليـــد أو روح الحزب فيما يطلقونه وفيما يؤدونه من أعمال سياسية • ولمـا كفوا عن التفكير فى رفاقهم من المواطنين المجهولين باعتبـارهم نماذج مكررة لجنس بسيط ، فانهم لم يفكروا فيهم بعد ذلك على الاطلاق ، واكتفوا باستعمال تعبيرات حزبية عـن الجنس البشرى ، والتحقق من الوجود الفردى لما يجرى حولهم •

وتصف مقدمة «وردسورث» بوضوح تاريخ التفكير العقلى عند آلاف عديدة من الناس الذين لا يستطيعون أن ينظمـــوا أشعارا على مستوى عال والذين أثرت خيبة أملهم السياسى فى قواهم الأخلاقية والعقلية وهو يقول لنا ان « الانسان » الذى أعجب به فى عام ١٧٩٢ عندما كانت الثورة الفرنسية فى مهدهـا لم يكن فى عام ١٧٩٨ أكثر من « تكوين عقلى » • وبعـــد أن مـــر بفترة ساد فيها الشعور باليأس والاجهاد وجد «الانسان ... الانسان الذى نراه بأعيننا» • ولكن هذا التحول من التبسيط الزائف للمجموع الى مجرد التأمل للفرد ، كان بمثابة النهايـة لقدرة «وردسورث» على تقدير القوى السياسية أو المساهمة فى التقدم السياسى •

ولو قدر لهذا الشعور المستمر بخيبة الأمل أن ينتهى بأن الطريقة الكمية ستنتشر فى السياسة وستغير ألفاظ وترابطات العالم العقلى الذى يعمل السياسى الحديث فى نطاقه • ولكن يبدو لحسن الحظ ، أن مثل هذا التغير يعتبر فى بدايته على الأقل • ويجمع فى كل عام مجموعات أكبر وأكثر دقة من الحقائق السياسية التفصيلية • ويجب استخدام هذه المجموعات من الحقائق التفصيلية ، هذا اذا كان لابد من استخدامها فى التفكير العقلى السياسى ، بطريقة كمية ، والعمل العقلى فى اعداد التشريعات سواء أكان الذى يقوم بذلك الرسميون أو الهيئات الملكية أو مجلس الوزراء يتخذ طابعا كميا أكثر منه نوعيا •

قارن مثلا الطرق التى استخدمتها اللجنة الحالية فى اعداد قانون الفقراء وتلك الطرق التى استخدمتها اللجنة المشهورة ذات القدرة الفذة ، فى الغائه عام ١٨٣٣ــ١٨٣٤ وقد جرت المناقشة فى تقرير أعضاء اللجنة الأولين بطريقة يمكن وضعها بسهولة فى شكل قياس تمهيدى • فكل الناس يبحثون عن اللذة ويتجنبون الألم • ويعتبر سلوك المجتمع الذى يضمن هذا الألم سلوكا غير اجتماعى الى حد ما فيما يعتبر سلوك المجتمع الذى يضمن اللذة سلوكا اجتماعيا • ويمكن حدوث ذلك اذا اعتمدت حياة كل رجل وأبنائه اعتمادا طبيعيا على جهوده الخاصة ، وبفضل الاشخاص المعدمين الذين لا يستطيعون القيام

بأعمال مفيدة للمجتمع عن هؤلاء الذين يمكنهم القيام بذلك • وهذا يؤدى الى «المبدأ المعترف به فى كل مكان حتى بين هؤلاء الذين لا يطبقونه ، وهو أن الموقف بوجه عام لن يكون واضحا حقا كما هو الحال بالنسبة لموقف العامل المستقل الذى ينتمى الى أحط الطبقات • ولقد اتضحت المسألة وزادت جلاء بما قدم من أمثلة وقرائن على يد أعضاء اللجان الفرعية ، أو كانت واضحة أمام اللجنة ، ويؤخذ منها أن العمال لن يجهدوا انفسهم فى العمل الا اذا حصلوا على ما يعوضهم عما يعانونه من ضيق وجهد شديد ، رغم انه لم تقم أية محاولة لتقدير نسبة عدد العمال فى انجلترا ، وهم الذين يغلب طابعهم ، ويلح وجودهم على كافة الأمور •

وهذا الاستدلال السابق الذى فسر وان افتقر الى الأمثلة التى تثبته ، يعتبر من الوضوح بحيث يسهل على الرجل العادى فهمه لدرجة أن مشروع قانون عام ١٨٣٤ الثورى الذى ترك أثرا عميقا فى كل أنواع المصالح الثابتة ، وافق عليه مجلس العموم بأغلبية ٤ الى ١ ومجلس اللوردات بأغلبية ٦ الى ١ •

ومن ناحية أخرى فانه على الرغم من أنه يوجد فى لجنة وضع قانون الطبقات الفقيرة التى شكلت فى عام ١٨٠٥ ، أعضاء كثيرون ألفوا تقاليد عام ١٨٣٤ ، فانها لجأت الى طرق جديدة مدفوعة بالحاجة الى معالجة النواحى المتغيرة المعروضة أمامها • وبدلا من

أن يفترض أعضاء اللجنة بان نشاط الانسان يعتمد اعتمادا كليا على عزيمته فى وجود الافكار المرتبطة باللذة والألم ، الا أنهم اضطروا الى تقسيم وبيان الملاحظات الكمية العديدة التى تشير الى العوامل الكثيرة التى تؤثر فى عزيمة الفقراء . ولا بد لهم مثلا من محاولة تقدير تأثير الصحة الوثيق فى الصناعة الذى يعتمد على المؤثرات المحيطة بهم ، والأمل الذى يرجونه فى كفالة الدولة للشيوخ والعجزة واتساع الافق كنتيجة للتعليم ، ومقارنة كل ذلك بالدافع « الاستعمارى المحض » الذى تثيره الأفكار المتعلقة بما سينجم عنه المستقبل من لذة وألم .

وبمعنى آخر فان الدليل الواضح أمام اللجنة لم يكن الغرض منه توضيح اقتراحات عامة ولكن لبيان اجابات كمية لأسئلة كمية أيضا . وتجمع الأمثلة فى كل حالة طبقا لقاعدة احصائية بارزة حتى تشير النتائج المتكررة الى أن أى تجميع آخر لن يكون له فائدة .

وقد بلغت المناقشة فى عام ١٨٣٤ فى معالجة الناحية السياسية لقانون الفقراء الى حد القول بأنه طالما أن كل الناس يفضلون مصلحتهم فان دافعى الضرائب سينتخبون ممثليهم الذين سيقومون فى حدود معرفتهم بتفضيل مصالح المجتمع بأكمله ، وطالما ان المناطق الانتخابية قد قسمت بحيث تمثل كل مصالح المنطقة وأن كل دافع ضريبة يتمتع بحق الانتخاب بالنسبة

لمصلحته . ومن ثم فانه يخيل أنه لا يهم كثيرا ما اذا كانت المناطق التى اختيرت حديثة أو قديمة أو ما اذا كان للهيئة التى انتخبت واجبات أخرى من عدمه .

ومن ناحية أخرى كان هناك فى عام ١٩٠٨ شعور بضرورة البحث فى الأسباب التى قد تؤثر فى تفكير دافع الضرائب أو المرشح للانتخاب أثناء معركة الانتخاب وتقدير أهميتهم الوثيقة بهذا الدليل الواضح . ولابد من مراعاة ما اذا كان الناس مثلا يدلون باصواتهم بطريقة أفضل فى مناطق يحتفظون فيها بعادات السلوك السياسى بالنسبة للانتخابات البرلمانية والبلدية ، وما اذا كان الانتخاب الذى سينجم عنه نواحى أخرى بجانب لجنة اعداد قانون الطبقات الفقيرة سيكون من شأنه خلق اهتمام بين الناخبين . واذا أجرى اكثر من انتخاب فى منطقة فى أى عام فسنجد بعد الاطلاع على بيان نسبة الأصوات أن حماس الانتخاب سيتضاءل امام تزايد المنافسة ويوضح ذلك فى سرعة انحناء الخط البيانى الى اسفل .

ولذلك يجب على القرارات النهائية التى ستتخذها اللجنة أو البرلمان فى المسائل المتعلقة بالسياسة الادارية وبالجهاز الانتخابى أن تقدير كل هذه الاعتبارات وكذا الاعتبارات العديدة الأخرى بطريقة كمية محضة . أى أن الخط الذى يقطع الخطوط البيانية المبينة بالدليل الواضح سيبين انخفاضا أقل اما بالنسبة للشعور

بالقلق نحو المستقبل كدافع للاجهاد او بالنسبة لصحة الانسان كعامل مؤثر فى زيادة الطاقة الانسانية عما لو كان سيظهر بالنسبة لكليهما لو اعتبرناه المؤثر الوحيد • وستزداد نسبة «البيروقراطية» عن الحد المرغوب فيه اذا لم تكن هناك خاصة لتوجيه نشاط الممثلين المنتخبين للناحية الاقتصادية وأقل احتمالا لوجود البيروقراطية مما قد يحدث اذا لم تكن هناك رغبة فى الاحتفاظ بتعضيد وتأييد شعبى • ولم تقم معالجة موضوع شعب انجلترا خلال المناقشة (كما قال جون ستيوارت مل) على أساس المتوسط أو على أساس المجموع ، بل كانت على أساس أنه يتكون من أفراد يمكن تصنيفهم فى «اقسام متباينة ومتعددة النواحى» طبقا لقوتهم العصبية والجسمانية وطبقا لقوة «شخصيتهم» ومدى تأثر سلوكهم الحاضر بما سيحدث فى المستقبل من آراء وأفكار •

وعلى العموم فقد تغير الجمهور الذى كان عليه أن يناقش هذا التقرير منذ عام ١٨٣٤ • ويميل كتاب الصحف الآن فى مناقشتهم مشكلة الفقر الى استعمال تعبيرات تتعلق بالنواحى التقديرية الكمية للتباين عند الافراد مثل «فقراء المدن» أو الذين لا يمكن استخدامهم ولا يعمدون الى استخدام تعبيرات عامة تتعلق بالطبقات الاجتماعية بأكملها مثل «الفقراء» أو «الطبقة العاملة» او الطبقات الفقيرة ، بينما نجد أن كل قارىء صحيفة

قد تعود على قراءة الارقام فى تقارير لجنة التجارة بالشهرة التى تبين التغيرات النى تحدث فى أوقات وفترات مختلفة بالبطالة المتفشية فى النقابات التجارية .

ويستطيع الفرد أن يقدم أمثلة أخرى على نقطة البدء هذه فى الاتجاه الى التفكير السياسى ، ويغير من أشكال المناقشة النوعية الى كمية . ولكن ربما لا تتاح هذه الفرصة الا لفرد وثيق الصلة بالسياسة العالمية ، فقد كانت السيادة منذ ٦٠ عاما مجرد مسألة نوعية ، ولقد أشار «أوستن» بانه يجب ان يكون هناك من يتولى السيادة فى كل مكان . وسواء أكانت هذه السيادة ، فى أيدى حكومة أوتقراطية أو حكومة ديموقراطية فانها يجب أن تكون مطلقة . ولكن اضطر المؤتمر الذى عقد فى برلين فى عام ١٨٨٥ للحيولة دون جعل تقسيم أفريقيا سببا فى اشعال سلسلة من الحروب الاوربية ، وهو ما حدث عند تقسيم أمريكا لمعالجة مسألة السيادة على أسس كمية نتيجة لتعقد المسائل التى أمامه . ولذلك فمنذ عام ١٨٨٥ أصبح كل فرد يألف التعبيرات التى استحدثت للتعبير عن تدرج السيادة مثل « الاحتلال الفعال » و « المناطق الداخلية » و « مناطق النفوذ » الذى ربما قلل من شأنه مؤتمر «الجزيرة» ، ونطاق «المطامح الشرعية» وليس من المهم أن نقرر ما اذا كانت مقاطعة معينة تعتبر أرضا بريطانية أم لا نهتم بتحديد ما اذا كان قضيب ما يحتوى على

نسبة معينة من الكربون هل يكون عندئذ قضيب حديد أو صلب

ويعمد بعض الناس الى عدم الاستسلام للاغراء تحاشيا للاختلافات الفردية حتى عند التفكير فى الاقسام الفرعية الصغيرة للحقيقة السياسية الملموسة . والى أذكر ما أخبرنى به ذلك الشخص الذى بذل جهودا كبيرة اكثر من أى شخص آخر فى انجلترا ، لاقامة أساس احصائى للتشريع الصناعى ، من أنه استغرق يوما بأكمله فى تصنيف عدة آلاف من «حوادث السكك الحديدية» كل حادثة تختلف فى ظروفها عن الأخرى .

ولكن يجب أن تتذكر دائما أن التفكير الكمى ليس من الضرورى ان يعنى التفكير فى تعبيرات خاصة باحصائيات عددية ولا يعتبر العدد الذى يقضى على كل تمييز بين الوحدات المعدودة هو الوسيلة الوحيدة أو حتى أكثر الوسائل دقة فى تمثيل الحقائق الكمية وأحيانا تكون الصورة مثلا أقرب الى الصدق الكمى وأسهل فى تذكرها وأكثر نفعا فى أغراض المناقشة واقامة الادلة والبراهين من مجموعة من الارقام . وقد رأيت أدق وثيقة سياسية كمية ممثلة فى مجموعة من الصور الفوتوغرافية لجميع النساء المسموح لهن بدخول الحانة . وقد بينت هذه الصور بطريقة أكثر دقة عما قد تقوم بها أية بيانات دقيقة ومسجلة الحقائق المتباينة للتكوين الجسمانى والعصبى . ومن السهل أن تقوم لجنة من الأطباء بترتيب الصور فى مجموعات تبين

الشذوذ المتزايد وملاحظة صورة المرأة «الأخيرة» التى يجب بالنسبة لحالتها ان تتعهد الدولة بالاشراف المؤقت او الدائم بعد النظر فى الاعتبارات الخاصة بالتكاليف والرغبة فى تشجيع المسئولية الفردية . وستظل النتيجة التى يراها أى فرد عالقة فى ذهنه .

وعلى المفكر السياسى أن يقوم أحيانا بتقليد من يشكل هيئة للوزارة عندما يستبعد قاعدته المقسمة تقسيما عدديا دقيقا والتى تسهل له أمر القيام بعدة انواع خاصة من العمل الفنى ، ويعتمد على حاسة اللمس عنده فى تقديره الكمى للاشياء . وأحكم تقدير دقيق ممكن لأية مشكلة سياسية أمكن الوصول اليه كان عندما توصلت مجموعة من الناس متباينين فى النشأة والتعليم والقوى العقلية — لأول مرة الى الاتفاق تقريبا على النتائج المحتملة لسلسلة من التغيرات السياسية المتوقعة والتى يترتب عليها مثلا زيادة أو نقص نفوذ الدولة ، وعندئذ تتضح النقطة التى يتحول عندها حبهم الى كراهية . فالانسان هو خير مقياس لنفسه ، مع أنه قد يصر على اتباع تلك الوسيلة الكمية بالرغم من أنه ربما يختار فى كل حالة وسيلة للقياس لا تؤثر فيها نواحى النقص التى تكمن فى قدراته . غير انه من المحتمل أن يلقى السياسى عونا كبيرا اذا ما استخدم نظرياته الكمية وذلك فى

الحالات التى يكون من المستحيل أو من غير المناسب استخدام الحساب العددى فيها .

ولقد أثير اعتراض واحد على أن يقوم التقدير السياسى صراحة أو ضمنا على الأساس الكمى ، اذ أنه يتضمن الموازنة بين عدة أمور تختلف عن بعضها جوهريا . فكيف يتاح للمرء أن يوازن بين الوحدة الحدية فى العزة القومية التى تصاحب استمرار الحرب وبين تلك الوحدة الحدية فى فرض الضرائب الاضافية التى يفترض أنها تقابل ذلك تماما ؟ وكيف يمكن للمرء أن يوازن بين السيادة المطلقة التى تكرس لخدمة العلم وبين السيادة المطلقة التى تكرس لاقامة تمثال لعالم مريض أو لوضع التفاصيل النهائية لمشروع اقامة مدارس داخلية ؟ والرد الواضح على ذلك هو أنه يجب على السياسى ان يعمل . فكل من يعمل يقوم الى حد ما بالموازنة بين كل الامور المتغيرة التى أمامه . ولا يختلف وزير المالية فى توزيعه السنوى للضرائب كثيرا عن المواطن الحر . فهو لا يقوم بموازنة الاشياء التافهة مثلما يقرر المواطن الذى معه جنيها او جنيهان ويريد صرفهما فى عيد رأس السنة بين أن يساهم فى رسالة الصين أو يفتح كوة بين المطبخ وحجرة الطعام فى منزله .

ويتمثل الاعتراض الأكثر جدية فى أننا يجب ألا نسمح لأنفسنا بالتفكير بطريقة كمية فى السياسة ، فان هذه الطريقة

من التفكير ستعمد الى القضاء على الاعتبار البسيط للمبدأ .
وقد تكون «المبادىء المنطقية» مجرد تمثيل غير دقيق لروعة
الطبيعة ولكنه قد اتفق أنه فى حالة تركها فان الفرد لن يكون
الا مجرد نهاز او مقتنص للفرص .

ويبدو أن الانتقال الى طريقة التفكير الاستدلالى من مبادىء
بسيطة فى اذهان هؤلاء المعترضين يتمثل فى طريقة الأمير بولو فى
خطبته فى الرشستاخ بمناسبة التصويت العام . فقد كتب يقول
«ما زال اغلب الاشتراكيين النظريين ينظرون الى التصويت العام
المباشر كمبدأ ثابت معصوم من الخطأ . فهو لم يكن بعابد
أصنام كما لم يعتقد فى المبادىء والقوانين السياسية . ولا تعتمد
مصلحة البلاد وحريتها كلية أو جزئيا على شكل دستورها أو
حريتها . وقد قال الهر بيبل فى احدى المناسبات بانه يفضل
الأحوال فى انجلترا على وجه العموم عن الأحوال فى فرنسا .
ولكن لم تكن الحرية فى انجلترا شاملة أو بدرجة واحدة أو
مباشرة . وهل نستطيع القول بأن «مكلنبرج» التى لم تتمتع
اطلاقا بنظام انتخابى سليم قد خضعت لحكم أسوأ مما خضعت
له هايتى التى سمع العالم اخيرا أخبارا غريبة عنها على الرغم
من أن هايتى تفخر بتمتعها بنظام الانتخاب العام ؟ »

ولكن الظاهرة التى أبرزهآ حديث «الأمير بولو» هي انه اما أن يكون قد تعمد وضع طريقة للتفكير العقلى العملى فى قالب هزلى ولا يوافق عليها أو أن يكون غير قادر على تفهم الاعتبار الأول للتفكير السياسى الكمى . واذا كانت «قاعدة» الانتخاب العام تعنى أن كل الناس المتمتعين بحق الانتخاب متســاوون فى جميع النواحي ، وأن الانتخاب العام يمثل جانبا من جوانــب الحكم السليم فانه فى هذه الحالة فقط يصبح هجومه عليها قويا وعلى العموم اذا كانت الرغبة فى اقامة نظام انتخابى عام مبنية على الاعتقاد بأن التوسع الشامل للنفوذ السياسى ما هــو الا عنصر من العناصر الهامة جدا فى طبيعة الحكم السليم ـ مــع اعتبار الاستعداد العنصرى والمسئولية الوزارية وما شابه ذلك عناصر أخرى ـ اذا كان الأمر كذلك فان حديثه سيصبح بــلا معنى .

ولكن «الأمير بولو» كان يحضر خطبته ليلقيهآ فى البرلمــان وفى الخطبة البرلمانية لم يكن هذا التغير من الطريقة النوعية الى الطريقة الكمية التى كان لها أعمق الاثر فى اجراءات المؤتمرات واللجان قد أدى الى أى تقدم كبير بعد . وغالباً ما تذكرنا تلك الاحاديث التى تأثر بها كثيرا بمستر جلادستون فان الالفاظ التى

تعلمها فى ايتون واكسفورد كانت سرعآن مآ تتـلاءم مع خبرته بالأشياء بمجرد ان يقف للتحدث كما أنه لم يوضح أبدا ما اذا كانت «النواحى العامة العظيمة والخالدة للحرية والحكم الذاتى» تعنى أنه يجب أن تكون هناك بعض العناصر المعينة تتميز بأهمية كبرى ودائمة فى كل مسألة من مسائل الكنيسة والدولة او أنه يمكن استنتاج حل سابق لجميع المسائل السياسية بواسطة رجال صالحين من قوانين مجردة صارمة .

الناحية الاخلاقية

فى السياسـة

لقد بينت فى الفصول السابقة أن كفاية علم السياسة ، أو بعبارة أخرى قدرته على التنبؤ بنتائج السياسة ، يبدو أنهـا ستطرد فى الازدياد ، وبنيت ذلك على حقيقتين :

أولا: أن علم النفس الحديث قد أمدنا بحقائق صادقة الى حد كبير ، عن الطبيعة البشرية على الرغم من أنها قد تكون أكثر تعقيدا من تلك التى ترتبط بالفلسفة السياسية الانجليزية التقليـدية • أما الحقيقة الثانية فهى أن المفكرين السياسيين بدأوا تحت تأثير العلوم الطبيعية ومناهجها باستعمال ألفاظ وطرق كمية أكثر منها نوعية فى مناقشاتهم وأبحاثهم • ولذلك فقد استطاعوا أن يعالجـوا مسائلهم معالجة كاملة ويجدوا لها حلا بدقة متناهية •

ولم يكن من داع فى هذا المجال أن نبحث فى مدى ما يمكن أن يؤثر به هذا التقدم فى علم السياسة فى المجرى الفعـلى لتاريخ

السياسة . ومهما تكن الطريقة المثلى فى اكتشاف الحقيقة فانها ستظل أحسن الطرق سواء وافق على اتباعها الجنس البشرى أو لم يوافق .

ولكن الغرض من دراسة السياسة كما يقول أرسطو هو « من أجل العمل أكثر منه من أجل المعرفة » . كما أن الباحث مضطر عاجلا أو آجلا الى أن يتساءل ما اذا كان حدوث تغيير فى معارفه سيؤثر على عالم السياسة الذى يعيش فيه والعمل داخل نطاقه .

ولذلك فانى أرى أن أتناول فى الجزء الثانى من كتابى هــــذا مناقشة مدى احتمال أن تصبح هذه الميول الجديدة التى بدأت فى تغيير علم السياسة قادرة على أن تجعل من نفسها قــوة سياسية جديدة . وسأحاول تقدير التأثير المتوقع لهذه الميول ليس فقط على الباحث أو السياسى البارع بل أيضا على المواطن العادى الذى يصل اليه علم السياسة فى المرحلة الثانية أو الثالثة فقط . وبهذا الاتجاه سأعالج فى فصولى القادمة علاقتها بمثلنا الاخلاقية فى السياســـة ، وبشكل وطبيعة عمل الجهاز النيابى والجهـــاز الرسمى للدولة وبامكانيات الوصول الى اتفاق دولى وتفاهم متبادل بين الاجناس المختلفة .

ويبحث هذا الفصل فى موضوع التأثير المحتمل لهذه الميول الجديدة

على الناحية الاخلاقية فى السياسة • ولا أعنى عند استعمال هـــذا التعبير أن أعمالا معينة تتسم بالاخلاق اذا جاءت نتيجـــة لدوافع سياسية والتى ستتعارض مع الاخلاق اذا جاءت نتيجة لدوافع أخرى أو العكس بالعكس ، ولكنى أعنى بذلك أن أؤكد أن هناك مسائل أخلاقية معينة لا يمكن دراستها الا على ضوء علاقتها الوثيقة بعـلم السياسة وهناك بطبيعة الحال مسائل متعلقة بالسـلوك مشتركة فى جميع المهن فيجب أن نتحلى جميعا بالرحمة والامانة والاخلاص فى العمل ونأمل أن يساعدنا مدرسو الاخلاق لنكون كذلك • ولكن لكل مهنة مسائلها الخاصة التى يجب أن يحملها طلابها قبـل أن يعالجها العالم الاخلاقى •

وتتمثل أهم المسائل الخاصة التى تتعلق بالسلوك فى السياسة فى العلاقة بين الطريقة التى يكون بها السياسى آراءه وأهدافه ، وبين تلك التى يؤثر بها فى آراء أهداف الآخرين •

وقد اعتبر الذين يعملون من أجل الديمقراطية منـــذ مائة أو خمسين عاما أن التفكير العقلى لا يمثل عملية صعبة أو غير مؤكدة بل انه يمثل عملية أوتوماتيكية ضرورية يقوم بهـــا العقل البشرى عندما تواجهه مشاكل تتصل بمصلحته • وهم يفترضون لذلك أنه من الضرورى أن يرشد العقل المواطنين فى ظل النظام الديمقراطى عند الادلاء بأصواتهم، وأن هؤلاء السياسيين الذين يقومون برسم

النتائج والاسس التى قامت عليها بطريقة واضحة للآخرين ـ هؤلاء يعتبرون أكثر السياسيين نجاحا ، وأنه من الممكن ضمان وجود حكم سليم اذا كان للناخبين فرص كافية للاستماع الى مناقشة نزيهة ٠

وغالبا ما يكون عند المرشح فى الانتخابات فى اليوم الذى ينتهى من دراسته وينزل على مسرح الحياة هذا الاعتبار الآن واذا منع نفسه عمدا من الوقوع تحت تأثير الخيال من وقت لآخر فانه قد يتذكر أنه ليس بالشخص الوحيد فى الدائرة الانتخابية الذى يزن الامور ويقوم بالتفكير العقلى فى المسائل السياسية ٠

وعلى الرغم من ذلك فمهما تكن درجة الشعور بالتقدير والاحترام عند المرشح تجاه الطريقة التى يصل عن طريقها أكثر مؤيديه ومعارضيه تعمقا فى تفكيرهم الى أغراضهم ، الا أنه ما زال يشعر بأن دوره فى الانتخاب ليس له علاقة كبيرة بطريقة التفكير العقلى على الاطلاق واذا انفسح له الوقت للتأمل فانه سيدرك أن القاعدة التى تقول انه من الخطأ الاقتصار على أشد الطرق اتصالا بالتفكير المنطقى من ناحية ، ليست حقيقية أو غير ذات موضوع ٠ ويستطيع السياسى بمضى الوقت أن يضع حدا لرغبته فى المناقشة المنطقية مع ناخبيه ويعتبرهم كمجرد مخلوقات غير عقلية فى أحاسيسهم وتفكيرهم ويعتبر نفسه عقليا محضا ويستطيع السيطرة عليهم ٠

ولذلك ربما يظهر منذ اللحظة الاولى أن هذا التغير الذى يحدث الآن فى علم السياسة سيؤدى بالتالى الى أن يهجر السياسيون الحديثون جميع النواحى الاخلاقية الموروثة ويقبلوا نتيجة لمعلوماتهم التى اقتبسوها من كتبهم الحديثة ـ على العمل بطرق اكتشاف العناصر غير العقلية فى الطبيعة الانسانية واستغلالها ـ واذا نجح هذا الاتجاه العقلى والترتيبات المبنية عليه فان هذه الطرق ستنتشر بسرعة تتزايد باستمرار • وهكذا الحال فى السياسة • فان الطريقة السهلة السريعة التى تؤثر فى معالجة الامور تحل محل الطريقة الصعبة والضعيفة التأثير •

واذا تتبعنا التاريخ السياسى فى الماضى فاننا نستطيع أن نقول ان الانسان قد أحرز تقدما عظيما فى نظمه دون تغير فى طبيعته وأن هذا التقدم ما هو الا نتيجة لمثل أخلاقية جديدة تكونت تحت تأثير معلومات جديدة • وقد يكون التأثير الكبير الذى يحدث فى سلوكنا نتيجة لاية زيادة فى معلوماتنا مختلفا تمام الاختلاف عن تأثيرها السريع المحدد • وغالبا ما يظهر تأثير هذه التغييرات بطيئا وان كان أبعد مدى •

ويخيل الى أن أهم النتائج السياسية لهذا المدى البعيد الذى تحدثه المعلومات الجديدة تتمثل فى اتساع موضوع السلوك حتى يشمل توجيه طرق التفكير العقلى وهذا فى الوقت الحاضر لا يشعر به

معظم الناس أو لم يلاحظوه • وتحدد حدود معلومات الذاتية الخاصة حدود سلوكنا الملموس • فعندما يدرك الطبيب الباطنى الدور الذى يلعبه العقل فى شفاء المرضى فانه قد يكره معلوماته ويخشاها ، ولكنه لا يستطيع أن يجرد نفسه منها • فيجد نفسه يراقب التأثيرات غير المعتمدة لكلماته ونبراته وحركاته حتى يتحقق من أنه يعد الوسائل التى يمكن أن تؤدى الى هذه التأثيرات رغما عنه •

ولكن من المحتمل ألا يساير هذا التوسع اللاشعورى فى معلوماتنا الذاتية لغير التقدم فى الفن السياسى الخاص بتوجيه الدافع واذ كان المطلوب أن يكون هذا الاتجاه مؤثرا فيجب أن يعزز بأن يشمل اعتبارات أخلاقية وفكرية جديدة ويطبقها - وتتمثل هذه الاعتبارات فى نواح مثالية جديدة تتعلق بها احساساتنا ورغباتنا •

ويعتقد معظم الناس حتى فى أوروبا أن العلم متعلق بأشياء خارجية بالنسبة لهم ، أشياء يمكن اختبارها بواسطة أنابيب الاختبار والميكروسكوبات وهم لا يعلمون أن هناك علما خاصا بالعقل ولكن هذه المعرفة على الرغم من ذلك لا تبين لهم أن هناك مثالية فى السلوك •

وما من شك فى أنه فى أمريكا حيث أتقن السياسيون فن توجيه الحوافز اللاشعورية عند الناس من الخارج بنجاح أكثر مما يكون فى أى مكان آخر اتجاهات جديدة تطالب بالحاجة الى التوجيه الشعورى

من الداخل . ويحاول الآن بعض هؤلاء الذين تدربوا على الطريقة العلمية فى جامعات أمريكا أن تشمل السياسة الاعتبار العملى المتعلق بالسلوك العقلى . ولكن يخيل الى أنهم حادوا كثيرا عن طريقهم المرسوم لان رسالتهم قد اعتمدت على النوع القديم من التباين بين « العقل » و « العاطفة » .

ولا يصح القول فى مجال السياسة بأن العقل يتعارض مع الشعور، لان الاحساسات البشرية لاتقتصر على ايجاد دافع للتفكير السياسى فحسب ، بل تحدد أيضا مقياس القيم التى يجب أن تستخدم عند اصدار أحكام سياسية . ولكن ما هى الوسيلة التى يمكن استخدامها بجانب ترديد اشاعة التآلف بين العقل والعاطفة وبين التفكير والحافز فى الدافع السياسى ؟ .

ويعتقد الفرد امكان حدوث ذلك عن طريق التعليم وخاصة التعليم العلمى . فان معظم الاطفال الذين يدرسون فى المدارس اذا قدر لهم أن يتعلموا الحقائق التى يعتمد عليها السلوك العقلى فانهم سيتعلمونها بطريقة مباشرة . وأعتقد شخصيا أن أى منهج مبسط فى الحقائق المتواضع عليها فى علم النفس سيكون مفهوما بدرجة كبيرة اذا درس على مهل للاطفال الذين فى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة وكذا الذين درسوا بعض المبادىء الاولية فى الطريقة العلمية . ويمكن تطوير أساس المعرفة اللازم للناحية العقلية فى المدرسة عن طريق دراسة التجارب العميقة التى مر بها العقل .

وعلى العموم تعتبر المسألة العامة فى التوجيه الخاص بالحقائق العاطفية والعقلية المطبيعة البشرية والذى يحمل الناس على التفكير فى الترابط بين العقل والعاطفة كمثال أخلاقى ، احدى المسائل التى ما زالت فى حاجة الى تفكير عميق وملاحظة دقيقة ولذلك فانه من السهل أن تقول بالنسبة للنواحى العاطفية فى السياسة انه يجب على المدرس أن يهدف أولا الى دفع تلاميذه الى الاحساس بوجود هذه النواحى العاطفية ثم العمل على زيادة قوتها وأخيرا اخضاعها لتوجيه التفكير العقلى فى نتائج العمل السياسى .

ولكن جدير بنا أن نتساءل : ألم يكن من المثالية أن نعتقد أن نظرية أفلاطون فى تجانس الروح - وهى أن تقوية كل من العاطفة والتفكير بواسطة تضامنهما الظاهر - يمكن أن تصبح جزءا من المثل السياسية العامة لامة حديثة ؟ ربما أجاب معظم الناس قبل نشوب الحرب بين روسيا واليابان بالايجاب ، أما فى الوقت الحاضر فمعظمهم يجيب بالنفى .

ويأمل الفرد فى أن يكون فى الغرب توافقا بين النواحى العاطفية والدينية الفلسفية الموروثة والاعتقاد الجديد الخاص بالناحية العقلية الذى أوجده العلم . وسيكون لهذا التوافق تأثير سياسى كبير ، وان كان الامل فى هذه النتيجة لم يتحقق بعد . فان الصراع الفعلى بين الايمان القديم والمعرفة الحديثة لم يحدث انقساما بين

ما انتهت اليه العقيدة الدينية والعلم فحسب ، بل أيضاً بين الاتجاه العقلى الدينى والعلمى • ولم يعد رجال العلم فى الوقت الحاضر يحلمون بمعرفة نظرية الاحتمال فى السلوك على يد كاهن انجليزى كما تعود من سبقوهم • فلم تعد لتلك النظرية ـ وهى القاعدة التى تبين أنه بينما يجب ألا يكون الاعتقاد جامدا أى أن يظل مرنا وعلى استعداد لتقبل أيةمشاهدة جديدة أو حدث جديد، حيث أن الحدث ضرورى ، فيجب أن تنظر اليه من زاوية المعرفة غير المتكاملة ـ لم تعـــد لتلك النظرية أهميـــة بالنسبة لهم • وللنشاط العقلى أهمية أكبر فى السياسة عن تلك التى يكتسبها تقبل المعتقدات أو الشواهد أو رفضها •

ولذلك ربما لم يتيسر حدوث تأثير فعال فى السياسة للمثل الجديدة فى السلوك حتى يتم اجراء تغيير كبير فى الاتجاه العقـلى المرتبط ارتباطا وثيقا بحياتنا فى جوانب عديدة • وربما يتم فى يوم ما التوافق بين التفكير العقلى والعاطفة فى النواحى الحساســـة فى شعورنا الاخلاقى ، وفى وجود التشتيت الفكرى المخيف والصراع العنيف فى نفوسنا • واذا جاء هذا اليوم فاننا سنلمس تقدما كبيرا فى السياسة مما يستحيل حـــدوثه الآن • ولن يكون فى استطاعة السياسى أن يسيطر على دوافع هؤلاء الذين درس طبيعتهم البشرية ويوجهها فحسب ، بل سيكون بوسعه أيضا أن يجعل هدفه واضحا

فى نفوس سامعيه • ومن ثم سيجد الوزراء وأعضاء البرلمان أكثر طرق التعبير تأثيرا ممثلة فى البساطة فى الحديث ، كما سينظر المواطنون الى ممثليهم كما ينظر الجيش الى قواده لاكتساب هذا المجهود الذهني الذى لا يمكن الحصول عليه بسهولة • والذى يستطيع الانسان أن يصبح بواسطته خاضعا للطبيعة ومهيمنا عليها •

الحــــكم النيـــــابى

ولكن من المحتمل ألا يقتصر أثر التغير فى معرفتنا المتزايدة فى نظرية أصل الحافز السياسى وفى طبيعة التفكير العقـــلى السياسى الراسخ على مثلنا من السلوك السياسى فحسب ، بل أيضا على تكوين نظمنا السياسية .

ولقد أوضحت من قبل أن الحركة الديمقراطية التى خلقت هذه النظم التى تسير عليها الآن معظم الامم المتحضرة كانت نتيجـــة للناحية العقلية المحضة فى الطبيعة البشرية التى تزداد بعـــدا عن الحقيقة كل عام بالنسبة لنا . ورب سائل يقول : ألم يثبت أن النظام الديمقراطى النيابى الذى قام على رأى خاطىء فى طبيعة عمله خاطىء فى حد ذاته ؟

ويستطيع أى مدافع عن النظام الديمقراطى النيابى الذى لم يعبأ بالفلسفة الديمقراطية الموروثة أن يجيب وحده على هذا الســـؤال بعرض الموضوع من بدايته ، وبيان الاغراض التى يحققها هـــذا التمثيل النيابى ، والى أى مدى تعتبر هذه الاغراض ضرورية لقيام حكم سليم .

ويمكن أن نعتبر الغرض الاولَ ممثلا تقريبا فى تعبير «الموافقة» • فان أساس الحكم النيابى مبنى على الموافقة الدورية والمتجردة التى يبديها نسبة معينة من المواطنين • ويمكن معرفة مقدار الموافقة المطلوبة من الحقائق المبينة والمتفق عليها ممثلة فى اعلان القرارات الايجابية التى يتخذها أغلبية المواطنين والتى يجب أن تقبلها الحكومة وتنفذها •

ولذلك فان موضوع ما اذا كان سيرنا على النظام الديمقراطى النيابى يعتبر خطأ ، سيثير موضوعا آخر هو ما اذا كانت موافقة أفراد المجتمع تعتبر شرطا أساسيا للحكم السليم • وقد أجاب أفلاطون الذى يعتبر أكثر فلاسفة العالم القديم فى السياسة اقترابا من رأى العالم النفسانى الحديث ـ دون تردد على هذا السؤال بالنفى • ولذلك فهو يقترح بطريقة جادة وجوب أن يعيش مواطنو جمهوريته فى ظل حكم هؤلاء الذين بذلوا جهدا من أجله واكتسبوا خبرة ومعرفة بالحقيقة التى تكمن وراء الظاهر • وهو يصف المدنية الفاضلة ، التى تعتبر نتيجة للرغبة الملحة فى اقامة حكم نيابى بتلك النخبة المختارة من الارستقراطيين المدربين تدريبا علميا • وهؤلاء يمثلون رجالا بارزين يكمنون وراء مخازى وبطولات وأحداث وشخصيات العالم الظاهر ••• •

ونستطيع نحن الانجليز باعتبارنا حكام الهند أن نشير فى هذا المجال الى نظام حكم قام دون الحاجة الى موافقة تفوق غيرها مما

تكون قد تمت فى ظل حضارة حديثة • وعلى العموم فقد أثبتت التجربة التى قمنا بها فى الهند أنه يجب أن يقيم هؤلاء الحكام تحت الاضواء حتى ولو كان اختيارهم وتدريبهم قد تم بعناية فائقة •

وحتى لو سلمنا بأن وجود نظام حكم لا يقوم على الموافقة يعتبر وجوده مزعزعا ومعقدا بل ومكروها ، فان ذلك لا يعنى أن الحكم الذى يقوم على الموافقة ليس دائما ممكنا ،أو أن الجهاز النيابى البرلمانى يعتبر الطريقة الوحيدة ان لم يكن أعظم الطرق وأحسنها لضمان الموافقة •

فربما كان النظام القائم على تولى رئيس لمقاليد الحكم ويتمتع بطاعة الشعب وفقا للعرف والعادة ، وهذا العرف أيضا يجعله بعيدا عن الطغيان والاستبداد •

ربما كان فى مراحل معينة أفضل من أى نظام آخر يمكن أن يحل محله •ولا يعتبر النظام النيابى حتى عندما يكون ممكنا قيامه كيانا ثابتا لا يتغير ، ولكنه يمثل كيانا يخضع لتغيرات لا حصر لها • وطالما كان هذا هو الوضع السائد ، فان قيام حكم نيابى يعتبر مستحيلا • ويمكن عن طريق التعليم التدريجى أن تزداد نسبة الناخبين • وحتى بلوغ هذه الغاية يستطيع الناس أن يكتشفوا بعض الطرق الاخرى التى تمكن المواطنين من تدعيم رغباتهم ، وأن تعتمد عليها سياسة الحكومة الى حد ما •

وهناك حاجة ملحة للابداع والابتكار • وعلى الرغم من أنه من المتوقع بل من المحتمل دائما حدوث تجديدات سياسية عظيمــة فى انجلترا فانه من المتوقع أن تقوم هذه التغيرات فى تكويننا السياسى ، التى تعتبر وليدة لمعرفتنا الحديثة ، على أسس وضعت نتيجة لعمل قام تدريجيا وميول ظهرت فى الافق من قبل •

فمثلا صدرت عدة قوانين فى « المملكة المتحدة » فى الثـلاثين والاربعين عاما الاخيرة ، وليست هناك علاقة وثيقة تربط بــين مجموعات القوانين • ولكن اذ انظرنا اليها ككل فانها تبــين أن الحكومة لا تعمد الى تنظيم طريقة ضمان قرار الناخبين وتأكيده فحسب ، بل تعمد أيضا الى تنظيم أكثر الطرق دقة فى تكوين هذا القرار • ولا يتم هذا لصالح معين ولكن نتيجة للاعتقاد بالفائدة العامة لطرق التفكير الصحيح ، وامكان ضمانها بواسطة التنظيم•

ولقد كانت المحاكمة عن طريق المحلفين فى أصلها مجرد طريقة من طرق تأكيد آراء الناس الفعلية فى كل مكان • ومن السائد فى انجلترا أن المحاكمة التى تتم عن طريق المحلفين قد أوضحت بعد اجراء عدة تغيرات استغرقت وقتا طويلا ولم يلاحظها ويتذكرها أحد أنه يجب أن يتم تكوين رأى المحلفين بعد انتهاء المحاكمة وليس قبلها • ولذلك فان الطريقة التى يتكون بها هذا الرأى قــد أمكن توجيهها وتطويرها بصفة مستمرة وعلى أكمل وجه حتى أصبحت المظهر الرئيسى للمحاكمة •

وعلى ضوء هذا التطور فى المحاكمة التى تتم عن طريق المحلفين ، نستطيع الآن أن نبحث فى التغيرات الجوهرية التى طرأت منذ قانون الاصلاح (الذى ظهر فى عام ١٨٦٧) على قانون الانتخابات فى المملكة المتحدة • كان من المتفق عليه قبل هذا التاريخ أنه يجب على الدولة ألا تكفل مبدأ الحرية الفردية دون قيود بدرجة تجعلها بعيدة كل البعد عن معرفة نوع الاتجاهات والدوافع التى ستقوم على ضوئها علاقة المرشحين فى الانتخابات بالناخبين • فمن الواضح أنه اذا سمح للمرشح بممارسة حرية مطلقة فان النظام النيابى بأكمله سينهار فى الحال • ولذلك فقد صدرت قوانين لمنع الرشوة • ولم تخل دساتير الدولة لعدة قرون من ذكرها • وكل ما هو مطلوب فى هذا المقام هو القيام بخطوة فعالة لجعلها عملية ذات تأثير حقيقى ولا سيما بعد المهازل التى حدثت فى الانتخاب العام الذى أجرى فى عام ١٨٨٠ • فمنذ مائة عام كان يحدث أن يستمر التنافس والتشاحن أثناء الانتخاب فى أية منطقة انتخابية لثلاثة أو أربعة أسابيع تتعرض خلالها مشاعر الناخبين وتفكيرهم فى كل يوم لاحاسيس وتخيلات خطيرة لما سيسفر عنه النتائج لاصواتهم •

وقد ظهرت مشكلة نفسانية أكثر تعقدا عند مناقشة نظام الاقتراع السرى العام • وتتلخص فيما اذا كان هناك احتمال لان يقوم الناخب بتكوين رأى يمتاز بالتعمق ومستوحى من روح

الشعب لو أدلى به ، بعد أن كونه بطريقة علنية أو سرية ؟ ويتبع العالم المتحضر كله تقريبا الآن طريقة الاقتراع السرى العام •

وهناك نتيجة أخرى للطريقة التى تعرضنا لها فيما يتعلق بنظام الانتخاب ، وهى أن البرلمان منذ عام ١٨٨٨ عمد عند اعادة تكوين نظام الحكم المحلى فى انجلترا الى التقليل من عدد الانتخابات واضعا أمامه الامل فى زيادة فاعليتها وربما يحدث شيء ما للقضاء على النواحى الضعيفة التى تلازم نظام الانتخاب ، ومن المحتمل أن يتم ذلك فى القريب العاجل • فمن الممكن أن تغلق البارات والحانات فى يوم الانتخاب لمنع شرب الخمر حتى لا يفقد الناخبون وعيهم مما يؤدى الى حالات عرضية قد تشيع جوا من الفوضى والاضطراب • كما لا تجرى الانتخابات يوم الاحد كما هو الحال فى فرنسا حتى يستطيع الناخبون أن يتوجهوا الى أماكن الانتخاب بعد قضاء يوم بأكمله لم يتخلله أى عمل مضن وأفكارهم راسخة ثابتة حتى فى وجود النشاط المثير الذى يحدث فى مكان الانتخاب والذى يؤثر فى أعصاب الاشخاص المجهدين الذين انتهت من أعمالهم اليومية تواء

ويشير بعض الكتاب الى أن جميع المصاعب التى تعوق نظام الانتخاب ستتلاشى من تلقاء نفسها بظهور المساواة الاجتماعية بين الناس فيعتقدون أن الاغنياء لن يكون لديهم الحافز الذى يدفعهم الى أن يعيثوا فسادا أو أن ينفقوا ببذخ فى حملاتهم الانتخابية • ولكن

لا يستطيع أى فرد يلمس حقائق السياسة عن كثب أن يعتقد أن التأثير المباشر الذى ينجم عن وجود مساواة تامة أو سيطرة نظام الاقتراع السرى العام سيشمل التخلص من جميع الصعوبات الاخلاقية والفكرية فى التنظيم السياسى . وستساعد أية زيادة فى عدد الاشخاص المهتمين بالسياسة فى انجلترا على ظهور عامل سياسى جديد معقد بجانب الزيادة العامة فى النشاط الفكرى فى مدتنا ، ومع ملاحظة تطور الناحية الاجتماعية فى السياسة بشكل خطير — فمن المحتمل أن يؤدى هذا الى انتشار الاهتمام بالامور المتعلقة بالانتخاب الى حد كبير . ومن ثم فان المواطن العادى سيجد ، بطريقة أوضح مما هى هى عليه الآن ، أن الادلاء بصوته بطريقة فعالة لا يعنى وضع علامة على بطاقته الانتخابية فى يوم الانتخاب فحسب ، بل يعنى أيضا المشاركة الفعلية فى الاعمال المتعلقة بتعيين اللجان الحزبية والاشراف عليها .

وتتمثل الصفة الاولى اللازمة للحكم فى ادراك أن الاشياء التى تستمد وجودها من القراءة تعادل فى أهميتها تلك الاشياء التى تدركها حواسنا ، ومن التأمل فى قائمة المرشحين للتعيين وتقدير مؤهلات الشخص الذى لم يقابله أى فرد من قبل بنفس المستوى الذى قدر على ضوئه مؤهلات شخص رآه من قبل وأعجب به أو أشفق عليه فى اليوم السابق ، أو فى الحكم على أى تقدم دون تحيز بين

منطقة لا يعلم عنها شيئا الا مكآنها على الخريطة وبين منطقــة يراها كل يوم خطيرة لما ستسفر عنه النتائج لاصواتهم .

ويمثل الاشخاص العاملون الذين انتخبــوا كأعضــاء فى البرلمان كما هو متبع ، أناسا مختارين يمتازون بالذكاء والقيم الاخلاقية والخبرة السياسية .

ولقد أوضح هذه المصاعب معارضو الديمقراطية فى الماضى . ولكن اذا قدر للديمقراطية النجاح فان على الديمقراطيين أن يجنوا بأنفسهم هذه المصاعب بوضوح وبصراحة . فكما يهتم المهندس الذى يحاول بناء كوبرى بزيادة ضمانات الامن فى تصميماته ، فانه يجب على هؤلاء الذين يرغبون فى زيادة ضمــانات الامان فى نظامنــا الديمقراطى أن يقدروا متوخين فى ذلك الوصول الى الحقيقة ، كلا من الحد الذى يمكن أن يزداد عنده بالفعل النشاط والقــدرة السياسية للمواطن فى أى وقت عند حدوث تغيرات فى الاخـلاق والتعليم ، وامكان الاحتفاظ أو تطوير أو اختراع هذه النواحى فى تكوين الديمقراطية كوسيلة للتخفيف عنه وحتى لا يحمل أكثر من طاقتــه .

تفكير الرسميين فى الدولة

وعلى العموم فانه من الواضح أن الأشخاص الذين انتخبوا بواسطة أى نظام انتخابى ملائم لا يستطيعون القيـــام باعمال الحكومة التى تتزايد كميتها فى الوقت الحاضر بسرعة مدهشة .

ومن المحتمل أن تستمر فى زيادتها . ومن ناحية أخرى فان عدد الأشخاص العاملين فى خدمة حكومة المملكة المتحدة المركزية المحتمل أن تستمر فى زيادتها . ومن ناحية أخرى فان عـــدد الأشخاص العاملين فى خدمة حكومة المملكة المتحدة المركزيـة والمحلية حسب تعداد عام ١٩٠١ (باستثناء الأفراد العاملـين فى الجيش والأسطول) كان يبلغ ١٦١ر٠٠٠ موظف . وقد زاد هذا العدد دون شك منذ عام ١٩٠١ ويمثل هذا العدد أشـــخاصا يقومون بساعات عمل تبلغ فى المتوسط اربعة أضعاف ما تتوقع أن يقوم به عضو منتخب فى أسبوع كامل .

ماذا يجب أن تكون عليه العلاقة بين الهيئتين اللتين تمثـلان ٢٣ الف شخص منتخبين وحوالى ٢٠٠ ألف شخص غير منتخبين؟ وهل يجب أن يكون للأعضاء المنتخبين الحرية فى تعيين الرسميين

غير المنجين كما يشاءون ؟ ان عضو الكونجرس أو عضـو مجلس الشيوخ المنتخب عن المنطقة او عن الدولة له الحق فى تعيـين الموظفين فى المجالس الفيدرالية المحلية . وقد يكون فى ذلـك بعض المخاطر ، ولكن هذه المخاطر مطمورة فىالنظام الديموقراطى العام ، وان مزايا النظام الديموقراطى بوجه عام تفوق مساوئه

لم يكن نظامنا السياسى المنطقى فى انجلترا بدائيا كمـا هو الحال بالنسبة لأمريكا ، كما لم يكن ايماننا به مزعزعـا . ولذلك فان أغلب الانجليز يشـعرون بالاخلاص للمبـدأ الديموقراطى ممثلا فى اعترافهم بأنه ليس من الأفضل أن يعتمد نفوذ الرسميين على العلاقة الشخصية بالنواب أنفسهم . ورغم أن الاتجاه ضد تعيين الرسميين عن طريق النواب المنتخبين واضح، فان مسألة الدور الذى يجب أن تقوم به أية هيئـة منتخبـة بصفة عامة ، فى تعيين الموظفين الذين يعملون لديها ، تعد مـن أكثر المسائل صعوبة ، ولا يمكن مناقشتها دون معرفة الوظائف الوثيقة التى يقوم بها الموظفون والنواب بعد اجراء التعيـين . هل نهدف الى جعل الانتخاب واقعيا كما هو من الناحية النظرية الدستورية الأساس الرئيسى للسلطة السياسية ، أو هل نريد أن يكون للموظفين غير المنتخبين بعض النفوذ المستقل ؟

ان الحقيقة الواضحة وهى أن معظم الانجليز سـيؤيدون الرأى الثانى على الرغم من تخوفهـم الموروث من نظـام

البيروقراطية ، تعتبر من أهم النتائج التى أسفرت عنها تجربتنا فى الميدان الديموقراطى . ونخشى أن نجد أنفسنا معتمدين اعتمادا كليا على الصحف الحزبية أو على النشرات الانتخابية لاكتساب معلوماتنا منها ، ولذلك فاننا نقدر حتى ولو كان لهذا السبب وحده قيمة وجود وظائف مدنية مسئولة ومستقلة فى بعض الشىء .

ولكن لنفرض مثلا أن وظائفنا المدنية لم تقم بالرسالة التى وجدت من أجلها او ظهر أنها خاضعة تحت نفوذ حزبى . ان الفرد يشعر بالحاجة الى أساس آخر تقوم عليه السياسة يعتمد على وجود أشخاص مستقلين عن الترتيبات التى يتم عن طريقها تكوين الرأى الانتخابى ولهم القدرة شرعيا فى أن يكون رأيهم مسموعا . ولكن السلطة السياسة المبنية على الوراثة او على الثروة ليست فى الواقع معصومة من ممارسة حرية ابداء الرأى والتعبير عن الشعور . وقد طغت السلطة المالية التى تعتمد فى وجودها على التأثير على الرأى على مجلس الشيوخ الأمريكى الذى أصبح ممثلا للثروة . ويتجه مجلس اللوردات فى انجلترا بسرعة نفس الاتجاه .

ولقد تدعم كيان مجلس العموم ــ «المجلس الثانى» ــ الذى يمثل الهيئة الدستورية الفعلية فى انجلترا ، بوجود الوظائف الدائمة التى تعين عن طريق نظام بعيد عن آراء ورغبات أى

سياسي والتى لها اعتبارها ، وليس بوجود مجلس اللوردات أو الملكية . ولكن للموظفين الانجليز فى وضعهم الحالى الحق فى أن تسمع رغباتهم دون حاجة الى ان يقوموا بتنفيذ ارادتهم بطـرق سليمة او شاذة .

ويعد انشاء هذه الوظائف المدنية أحـد النظم السـياسية الهامة التى أدخلت فى انجلترا فى القرن التاسع عشر وقد ظهـر هذا النظام كغيره من النظم الجديدة بدافع الضرورة لايجـاد حل عملى للمشكلة السياسية . وقد أوضح أن جميع الوظائف التى تحتاج الى مؤهلات فكرية يجب ان تكون ميسرة للشبان الذين يمتازون بقوة الشخصية ويجتازون الامتحان فى موضوعات تبين مدى ما وصل اليه تعليمهم . ونحن الآن ننظر الى الوظائف المدنية دون شعور كامل ، كحقيقة لا تتغـير حيث تنظـر الى المزايا أو المساوىء التى تمتاز بها او تتغاضى عنها كلية . وليس هناك أى سبب يدعو الى عدم تطبيق هذا النظام فى تعيين موظفى الدولة فى المناطق المحلية كما هو المتبع بالنسبة لموظفى الحكومة المركزية . والهدف الرئيسى من انشاء وظائف للحكومة المركزية فى انجلترا هو تجنب الفساد والرشوة . وهذه الرغبة فى تجنب الفساد والرشوة فى حاجة الى تعميمها بالنسبة للحكومة المحلية بطريقة أوضح من غيرها . ونظام التنافس دون شك له ميزات فعلية الى أقصى حد . فيشعر المرشحون بأن هذا النظام نظـام

«عادل» فهو يظهر الحقائق عن أهلية المرشحين الفعلية فى بعض الصفات الفكرية الهامة التى لا تستطيع الشهادات العلمية اظهارها والتى تظل مطمورة للمرشحين أنفسهم لحين ظهورها عند اجراء الامتحان . فمن المعتقد حتى الآن ان الشبان الانجليز ينقسمون الى أقلية صغيرة حصلت على «التعليم الحقيقى للرجل المهذب» تقريبا ، وغالبية كبيرة لم تحصل على تمرين فكرى على الاطلاق . لذلك فان الشرط الاساسى للتعيين هو «الجدارة» . واعلان نتائج الامتحان هو النهاية الحاسمة . ولكن فى مكتب العمل الحكومى لن تتاح الفرصة لوجود التفكير المؤثر اذا لم يعمل التنظيم على ضمان الدوافع الفعلية طوال حياة الموظفين المعينين فى العمل كما هو الحال ، بكل تأكيد فى المحكمة او فى المعمل .

ولكن مهما تكن قدرة الموظفين وثباتهم ، ومهما يكن من اختلاف اصلهم فان خطر ضيق الأفق والجمود فى التفكير الذى تخلقه الحياة الرسمية العامة سيظل قائما ولذا يجب أن تتنبه له بكافة عوامل التشجيع المختلفة لتحرير التقدم الفكرى .

القومية والجنس البشرى

بحثت فى الفصول الثلاثة الأخيرة التأثير المحتمل لميول فكرية معينة قائمة فى مثلنا فى السلوك السياسى ، ونظمنا فى التمثيل النيابى ، والطرق التى تتبعها لضمان النزعات الفكرية الأولية وتأثير وظائفنا الحكومية الفعال ـ او بمعنى آخر ، التأثير المحتمل لميول فكرية قائمة فى تنظيم الدولة الداخلى . وأود ان ابحث فى هذا الفصل موضوع تأثير هذه الميول ذاتها فى العلاقات بين الدول وبين الاجناس المختلفة .

ولقد أشرت من قبل الى وجوب بقاء الدولة الحديثة للتعبير عن أفكار المواطنين ومشاعرهم وهى تقوم كحقيقة مباشرة ولكن ككيان عقلى ، او كرمز ، أو كصورة مجسمة ، او كشىء مجرد . ولذلك فان المساحة المنتظرة للدولة ستعتمد اعتمادا كليا على الحقائق التى تحدد ايجادنا لهذا الكيان واستعماله . ومنذ خمسين عاما اعتقد السياسيون الذين كانوا يعيدون تنظيم أوروبا على أساس القومية ، انهم قد اكتشفوا الحقائق الاساسية فى الأسباب التى تحدد التجانس المادى والفكرى بين الأمم . وهم

يعتقدون انه يجب أن تكون «الأمة» متجانسة لكى يتم حكـم الدولة حكما فعالا ، حيث انه لا يوجد أى مواطن يستطيع أن يتخيل بلاده او يجعلها هدفا تتجه اليه مشاعره السياسية اذا لـم يؤمن بوجود الطابع القومى الذى يشترك فيه المواطنـون ، ولا يستطيع ان يستمر فى ايمانه بوجود هذا الطابع اذا لم يكـن زملاؤه المواطنون يشبهون بعضهم البعض فى الواقع ويشبهونه فى نواح هامة معينة . ولقد حدد بسمارك مساحة امبراطوريتـه الألمانية الممتدة من حيث الاتساع بالنسبة لامكانية توافق أجناس ألمانية للجنس البروسى . ويعتقد مازينى ، كما يعتقد بسمارك ، أنه لا يمكن حكم الدولة حكما سليما مالم تمثل شعبا متجانسا . ولكنه يعتقد أن سياسة بسمارك فى امكانية اخضاع الشـعوب الضعيفة للتجانس تجانسا اصطناعيا بواسطة الجنس الأقوى هو أقسى أنواع العبودية ، ووضع خططه فى اعادة تنظيم أوروبا على أساس حكمة الخالق كما هى موضحة فى التبادل القائم بـين الشعوب المبنى على الحقائق الجغرافية . فيقول «ان الله قـد قسم الجنس البشرى الى جماعات مميزة على ظهر الارض .. وأن الحكومات الفاسدة هى التى حادت عن هذا الوضع المقدس. ولكنك تستطيع أن تتبين ذلك فى اتجاه الانهار العظيمة والجبال الشامخة وفى بعض الظواهر الجغرافية الأخرى » .

ولذلك فان كلا من مازينى وبسمارك يعارض بكل ما أوتيا

من قوة المبادىء الانسانية التى أعلنتها الثورة الفرنسية . وقد هاجم مازينى «انصار مذهب العالمية الذين ينادون بأن على جميع الناس ان يحبوا بعضهم البعض دون أى تمييز للجنسية ، على أساس أن ذلك يستحيل تنفيذه سيكولوجيا . فيقول انه لا يوجد أى انسان يستطيع أن يتصور الانسانية بمعناها الشامل اذا كانت تعنى بالنسبة له تلك الملايين العديدة من الناس التى تشكلها ومن ثم فلا يستطيع احد أن يشعر بالمحبة ناحيتها .

ولقد لعبت القومية ، كما فهمها بسمارك أو مازينى ، دورا كبيرا لا يقدر فى تطور الشعور السياسى فى أوروبا خلال القرن التاسع عشر . ولكن أصبح الاحتمال أقل فى تقبلها كحل لمشاكل القرن العشرين . فاننا لا نستطيع الآن ان نتفق مع مازينى فى رأيه القائل بان «عصرنا الحاضر يتجه ، دون نزاع الى اعادة تقسيم أوروبا الى عدد معين من دول قومية متجانسة ومتعادلة، بقدر الامكان فى السكان وفى المساحة .» لقد بالغ مازينى حقا ودون وعى فى بساطة المسألة الى حد كبير حتى فى عصره . ولم تنقسم الأجناس القومية فى المساحة الكبيرة فى جنوب غرب أوروبا الى وحدات متجانسة طبقا لمجارى الأنهار الكبيرة واتجاه الجبال المرتفعة ، ولكنها اتحدت وتآلفت لالتقائها من قرية الى أخرى . وقد أجبرتنا الأحداث على الاعتراف بهذه الحقيقة . وربما لو كان مازينى بيننا اليوم لكان قد اعترف بأنه لو رفضنا

قبول سياسة بسمارك المبنية على التشابه غير الطبيعى لكان هنـــاك بعض الدول فى أوروبا يعيش فيها سكان يتبعون أجناسا قومية مختلفة الى حد كبير • وان نظرية بسمارك فى امكان وجـــود وحدة او تجانس مصطنع «بالحديد والنار» لأقرب الى حقائــق القرن التاسع عشر من نظرية مازينى • ولكن تطبيقها يعتمد على افتراض أن أفراد الجنس السائد سيعمد دائما وبعزم على فرض جنسهم على الأجناس الاخرى •

ولقد ظهرت صعوبة أكثر أهمية عند تطبيق المبـدأ الذى يشير الى أن مساحة الدولة يجب أن تعتمد على تجانس العنصر القومى ، سواء أكان طبيعيا أو مفتعلا • ظهرت هذه الصـعوبة نتيجة للتوسع السريع الذى حدث فى الربـع قرن الأخـير للدول الاوروبية الكبرى فى حدود الدول غير الاوروبيـــة • فلم يعمل مازينى حتى وفاته فى عام ١٨٧٢ او بســـمارك حتى بدء مغامرة الاحتلال فى عام ١٨٨٤ ، حســـابا لاندماج الحدود والشعوب خارج أوروبا • فلم يقم أحدهما بدراسة عميقـــة لهذه المشاكل التى ظهرت فى عصرنا نتيجة «للزحف للسيطرة على العالم » • ويبدو حقا ان مازينى قد توقع الى حد ما أن القوميـــة ستنتشر من أوروبا الى آسيا وافريقية ، وأن تحالف البشريــة ستوقع ميثاقه أمم متجانسة ومستقلة ستنتشر على سطح الكرة

الأرضية بأكملها • ولكنه لم يبين القوى السياسـية التى أدت الى ظهور هذه النتيجة •

ولم يحاول بسمارك الذى يتميز بضيق الأفق وان كان يعتبر عمليا أكثر من مازينى ــ لم يحاول أن ينظر الى الأمام كما فعل مازينى ويدخل فى حسابه تحالف الجنس البشرى الذى يجـب أن يشمل حتى الدول الأوروبية ، ولكنه عارض دائما ضد أية محاولة لاقامة أية علاقة مهما كانت ، سواء أكانت علاقة أخلاقية أو سياسية بين الدولة والدول او الشعوب الخارجة عن حدودها•

ولقد حاول المستعمرون البريطانيون الجدد تطبيق فكـرة التآلف القومى لفترة ما على أوضاع الامبراطورية البريطانيـة وعندما اضطر المثاليون من بينهم الى الاعتراف بأن مثل هـذا التآلف بين البيض ليس له وجود بعد ، عمدوا الى الاعتقاد بأن ذلك يمكن ان يحدث تدريجيا وحتميا بقراءة قصائد من الشعر تحمل فى طياتها النغمة الاستعمارية وبتكوين مجلس استعمارى • أما المؤمنون بسياسة بسمارك فانهم يعتقدون بامـكان حدوث ذلك فى جنوب افريقية وفى أى مكان آخر «بالحديد والنار» •

وفى نفس الوقت لم تجـد الاجناس الملـونة فى نطـاق الامبراطورية أية دلائل على الرضا بحياتهم ، مثـل الانجليز الفقراء فى القرن الثامن عشر لاعتبـارهم مجرد آلة فى أيدى اناس آخرين ، ولديهم أيضا أفكارهم القومية الخاصة بهم غير الواضحة•

واذا لم تحطم هذه الأفكار امبراطوريتنا نهائيا فان امبراطوريتنا ستتحطم لأن هذه الافكار تتزايد وتقوى وعلى استعداد للانتفاضة لا نتيجة للاحساس بالانانية الاستعمارية ، ولكن نتيجة لهذه الاعتبارات الدينية والأدبية العميقة التى لا تعبأ الا قليلا بالحدود الاستعمارية أو القومية .

واذا نجحت سياسة الأنانية الاستعمارية فان جميع الامبراطوريات ستنتهجها ، وسواء رضينا أم لم نرض فان المنتصر فى كل حرب استعمارية سيستولى على حدود المهزوم . وبعد عدة قرون من المشاحنات والمنازعات والحروب . والتقهقر المستمر ، وبعد سفك الدماء وضياع الثروات والاخلاص والحضارة الحديثة لن يبقى الا امبراطوريتان ، وستضم كل منهما اجناسا مختلفة من الأبيض والاصفر والبنى والأسود ، كلهم يشعرون بالكراهية تجاه بعضهم البعض . ولكن الصراع سيظل مستمرا وتتيجة لذلك فلن تبقى الا امبراطورية واحدة .

اذن هل نستطيع أن نصل الى الخطوة التى صرح مازينى بأنه من المستحيل الوصول اليها ؟ أى هل نستطيع أن ندرك جميع الأفراد المختلفين الذين يمثلون الجنس البشرى بأكمله ؟ واذا أمكن ذلك فهل يمكننا ان نشعر بالحب نحو ١٥٠٠ مليون فرد يختلف الواحد منهم عن الآخر ؟

نستطيع أن نجيب عن السؤال الاول بالرجوع الى نظرية

«أصل الانواع» لداروين • فطالما اننا قادرون فى الحقيقة على تمثيل الجنس البشرى فى خيالنا ليس باعتباره مكونا لأفـــراد متباينين تباينا حادا ولا يمكن تكوين صورة لهم ، ولا باعتباره مجموعة من الأمم المتجانسة تجانسا كاملا ، ولـــكن باعتباره مجموعة بيولوجية يختلف فيها كل فرد عن الآخر اختلافا غـير جوهرى أو اختلافا بسيطا ، فان هذا الاختلاف يعتبر نتيجـــة لعملية دقيقة يتم فيها التطور العضوى • وطالما أن ما يمكن تمثيله فى خيالنا يمكن تمثيله فى عواطفنا فقد أصبح الرد على السؤال الثانى واضحا فى نظرية التطور ، ومن ثم يمكن القضاء علـــى الشعور بالانانية الحمقاء السائدة بين الأمـــم والامبراطوريات بالشعور بالحب نحو هذه الجموع المختلفة اللانهائية التى يمكن أن نراها وهى تشق طريقها فى جو ملىء بالآلام والاضطرابات نحو قيام علاقة أكثر تجانسا بالعالم •

ويبدو فى بادىء الامر أن ظهور المأساة الفكرية فى القـــرن التاسع عشر جعل من المستحيل اكتشاف التطور العضوى بـــدلا من اثارة مثل هذا الشعور بالحب الشامل نحو الانسانية واننا على وشك ان نكون فى عصر يصبح فيـــه من الضرورة التبصر والتأمل والأناة عند ابادة الأجناس اذا كان هناك مثل هذا العمل• ويشير علم تحسين النسل الى أنه ينبغى ان تهدف الأجناس المختلفة الى تشجيع تحسين النسل لا الى العمـــل على ابادة بعضهـــا

البعض • ولكن هذه الفكرة لا تلقى تأييدا فى نفوس هؤلاءالذين يؤمنون بأن الانواع قد نظمت نفسها فى مراتب محددة واضحة وهى المرتبة «الرفيعة» والمرتبة «الوضيعة» ولكن فى الأعوام القليلة الماضية أظهر سكان أوروبا روحا جديدة يسودها التواضع نتيجة لانتشار المبادىء الفكرية من جهة ، ونتيجة للحقائق المخيفة للحروب من جهة أخرى •

ولا شك أن هناك استعدادات عسكرية بين الأمبراطوريات قد تؤدى الى قيام حرب شاملة تقضى على الانسانية • وقد نختلف فى تفسير الصورة التى رسمناها نحن جميعا لأنفسنا للعالم ، ولكن اذا نظرنا اليها الآن فانها قد تثير فى نفوسنا احساسات عميقة بكياننا • وقد تحمل الى بعضنا الثقة فى هذا الشعور بالحب الذى رآه دانتى « يهز السماء والنجوم » • وقد تثير فى نفس كل فرد منا شعورا بالعطف نحو اولئك الذين يحملون مشعل الحياة من جيل الى جيل •

مطابع شركة الاعلانات الشرقية

مجموعة

إخترنا لك

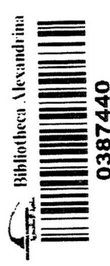
تصدر

نصف شهرية باللغات العالمية

يشترك في تحريرها وإعدادها

لجنة "إخترنا لك"

المراسلات : ص٠ب ١٠٩٤ القاهرة



مطابع شركة الاعلانات الشرقية